ويلكي كولينز

جوهرة القمر

ترجمة :د.نظمي لوقا

رواية

Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تمهيد

قصة اقتحام "سرينجاباتام" سنة ١٧٩٩

كما وردت في بعض أوراق الأسرة

أوجه هذه السطور التي يخطها قلمي وأنا في بلاد الهند إلى ذوي قرباي في إنجلترا. ومرادي منها أن أبين الدافع الذي دعاني أن أضن بصداقتي على ابن عمي جون هيرنكاسل. وقد نشب الخلاف بين ابن عمي وبيني بمناسبة حادث عظيم اشترك فيه كلانا، وهو اقتحام مدينة سرينجاباناام سنة ١٧٩٩.

Telegram:@mbooks90

ولكي تستقيم هذه الظروف في الأفهام، ينبغي أن أعود إلى الأقاصيص التي شاعت في معسكرنا عن الكنوز المخبوءة في قصر تلك المدينة.

كان من أعجب تلك الروايات حديث ماسة صفراء، هي جوهرة ذات شهرة في تاريخ الهند القومي.

وأقدم ما عرف عن تلك الجوهرة أنها كانت تزين جبين تمثال إله القمر ذي الأذرع الأربع. ومن أجل هذا الأصل التاريخي، ولغرابة لونها أيضًا اشتهرت باسم "جوهرة القمر".

وترجع بداية مغامرات الماسة الصفراء إلى مطلع القرن الحادي عشر. ففي ذلك التاريخ استولى السلطان محمود الغزنوي على مدينة "سمنوت" المقدسة، وأتى على كل ما كان فيها من الأصنام. فلم ينجُ من هذا المصير سوى صنم إله القمر، إذ استنقذه ثلاثة من كهان البراهمة، وحملوه خفية إلى مدينة "بنارس". وهناك أقيم له هيكل جديد، ثم ظهر الإله "فشنو" لكثير من أتباعه البراهمة في منامهم، وأمر أن تحرس ماسة القمر ليلا ونهارًا بإشراف ثلاثة كهان، وتنبأ بكوارث تحل بمن تمتد أيديهم إلى الجوهرة المقدسة!

وفي أوائل القرن الثامن عشر ذك هيكل الصنم ذي الأذرع الأربع، وتم الاستيلاء على جوهرة القمر بأمر أور نجزيب إمبراطور المغول.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وجعلت الجوهرة تنتقل من يد إلى يد، ناقلة لعنتها معها. ولبث خلفاء الكهان الثلاثة مع ذلك قائمين بالحراسة.

وفي أواخر القرن الثامن عشر، صارت الماسة إلى حوزة "تيبو" سلطان "سرينجاباتام" فأمر بجعلها في مقبض خنجر.

ولم يأخذ أحد من أهل معسكرنا تلك القصة مأخذ الجد، اللهم إلا "جون هيرنكاسل" ابن عمي. وفي الليلة السابقة على الهجوم استشاط غضبًا مني لتندري بالموضوع من مبدئه إلى منتهاه. وأعقبت ذلك مشاحنة رعناء، ونذر أن تزين تلك الماسة إصبعه إذا دخل الإنجليز سرينجاباتام.

وافترقنا في يوم الهجوم طول النهار، فلم نلتقِ إلا في المساء. وبدا كأن القتال الرهيب الذي خضناه قد أثار ثائرته. وفيما كنت أبذل جهدي لإعادة النظام إلى نصابه، سمعت صراخًا مرعبًا. فعدوت نحو باب مفتوح وجدت على عتبته جثتي هنديين صريعين. ثم سمعت صرخة جعلتني أبادر بدخول الحجرة، فإذا هندي ثالث يخر على الأرض تحت قدمي رجل كان ظهره إلى جهتي. ولما استدار ذلك الرجل رأيت فيه جون ابن عمي وفي يده شعلة، وفي اليد الأخرى خنجر يقطر دمًا. وفي مقبض ذلك الخنجر جوهرة تتلألأ في ضوء الشعلة كأنها لهب.

وأشار الهندي الصريع إلى الخنجر بيده وقال:

- ستنتقم منك جوهرة القمر ومن ذويك!

وما كاد يتم الكلمات حتى لفظ نفسه الأخير!

وقبل أن أتحول من مكاني، كان الرجال قد تجمعوا في الحجرة، فصرخ ابن عمي صرخة من مسه الخبال:

- أخلوا هذه الحجرة!

ثم لم أرَ وجهه طول تلك الليلة!

ولما أقبل الصباح التقيت به مرة أخرى، فقلت له:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- خبرني، كيف لقي ذلك الهندي حتفه؟ وما معنى كلماته تلك؟

فقال هيرنكاسل: "لقد لقي الهندي حتفه فيما أظن متأثرًا بجرح مميت! أما كلماته الأخيرة فلا أعرف عن مغزاها أكثر مما تعرف"!

فأدرت له ظهري، ولم نتبادل الحديث بعد ذلك أبدًا!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

القسم الأول

ضياع الماسة في سنة ١٨٤٨

كما يرويه جبريل بتريدج، كبير خدم السيدة جوليا، ليدي فيرندن، أرملة السير جون فيرندر

أطياف الماضي

في صباح اليوم الحادي والعشرين من شهر مايو سنة ١٨٥٠ جاءني المستر فرنكلن بليك وقال لي:

- لقد جئت إليك من عند المحامي حيث كنت أتباحث معه في بعض شئون الأسرة. وقد تحدثنا عن موضوع فقدان الماسة الهندية في بيت خالتي بيورك شاير منذ سنتين. اعتقد المحامي مستر براف أن القصة كلها يجب أن تسجل إحقاقًا للحق. وقد لحقت بشخصيات قوم أبرياء ظلال الشبهات في موضوع هذه الماسة. ولا شك أن هذه القصة العجيبة التي حدثت في أسرتنا تستحق أن تروى. وقد رأينا أنه من الأوفق أن نكتب جميعًا قصة الماسة، كل منا من ناحيته، وعلى حسب علمه وخبرته الشخصية بموضوعها. على أن نبدأ ببيان وقوع الماسة في يد خالي هيرنكاسل ببلاد الهند منذ خمسين سنة. ثم كيف وصلت الماسة إلى بيت خالتي بمقاطعة يورك شاير منذ عامين، وكيف ضاعت بعد ذلك بما لا يزيد على اثنتي عشرة ساعة.

ثم تنهد المستر بليك وقال لي:

- ما من أحد يعرف هذا الموضوع كما تعرفه أنت يا بتريدج ولهذا يجب أن تفتح فصول القصة!

وأجبته بأنني لا أجد نفسي كفؤا لهذه المهمة. وكان هذا هو شعوري حقًّا. غير أنه أبى أن يصدقني، وأصر على أن أفسح المجال لمواهبي البيانية، عسى أن أفلح في إنجاز المهمة على الوجه المطلوب!

إن كانت لك دراية بالمجتمع الراقي، فلا شك أنك سمعت بالفتيات الثلاث كريمات هيرنكاسل وهن الآنسة أوليد، والآنسة كارولين، والآنسة جوليا، وهذه الأخيرة هي صغراهن، وهي أيضًا أفضلهن في رأيي. وقد التحقت بخدمة والدهن اللورد الشيخ وأنا في سن الخامسة عشرة. ولبثت في القصر إلى أن تزوجت الآنسة جوليا من المرحوم السير جون فيرندر. فصحبت العروس إلى دار زوجها وأراضيه بهذه البقعة "يوركشاير" وكانت الأمكنة عندي بمنزلة سواء أينما توجهت ما دامت سيدتي لم

تفترق عني!

ووضعتني مولاتي تحت رياسة ناظرة الدائرة، فبذلت غاية جهدي وظفرت بالترقي جزاءً وفاقًا لحسن خدمتي. حتى إذا ترك الناظر الخدمة بعد بضع سنوات حللت محله وأصبحت في مركز مشرف وموضع ثقة، ومنحت كوخًا صغيرًا أقيم به. فماذا عساي أن أطلب من دهري أكثر من ذلك؟!

على أنك ولا شك تعذر جدنا الأول المرحوم آدم ولا تنحى عليه باللائمة حتى تذكر كيف شعر بالوحشة وهو يعيش وحده في جنة عدن. وقد كان لي نفس العذر!

وكانت المرأة التي وقع اختياري عليها هي المرأة التي تشرف على تدبير شئون بيتي. واسمها سيلينا جوبي. وكانت تتقاضى مني مبلغًا معينًا كل أسبوع في نظير خدماتها لي. فإذا صارت زوجة لي، فسيتعين عليها أن تقدم لي خدماتها بغير مقابل. وهذه هي الزاوية التي نظرت منها إلى الموضوع. مسألة اقتصادية، مع شيء يسير من الحب!

وقد بسطت المسألة أمام سيدتي على هذا النحو، فانفجرت ضاحكة، وإن كنت لا أدري لماذا. وعلى كل حال، أذنت لي في عرض الموضوع على سيلينا نفسها. وكان هذا كافيًا. وصح ما توقعته بطبيعة الحال، فتلقت سيلينا ذلك العرض بالقبول!

ولم نكن في حياتنا الزوجية على غاية من السعادة أو غاية من الشقاء. حتى إذا راق للعناية الصمدانية بحكمتها الأزلية أن تستأثر بزوجتي بعد خمس سنوات من الخلافات، تركتني وحيدًا مع ابنتي الصغيرة بينلوبي. وبعد زمن وجيز توفي السير جون تاركًا لمولاتي ابنتها الصغيرة الآنسة راشيل.

ولا شك أن وصفي لمولاتي يكون قاصرًا غاية القصور إذا احتاج القارئ إلى توكيد صريح بأن ابنتي الصغيرة بينلوبي قد وجدت لديها العناية والرعاية، ثم رقيت حين بلغت السن المناسبة إلى وظيفة الوصيفة الخاصة للآنسة راشيل!

وفي عيد الميلاد سنة ١٨٤٧ فطنت مولاتي إلى تقدمي في السن فطلبت مني أن أترك عملي الشاق في الضيعة وأخلد للراحة ما بقي من أيام حياتي في وظيفة كبير

وها هي ذي ابنتي قد أطلت من فوق كتفي لترى أين وصلت فيما أنا بصدد كتابته. وقد لفتت نظري إلى أن المطلوب مني هو سرد قصة الماسة وإلى أني بدلًا من ذلك قد اندفعت أسرد قصتي الشخصية. فماذا عساي صانع الآن؟

لست أرى لي مخرجًا إلا أن أبدأ الكتابة من جديد!

في الرابع والعشرين من شهر مايو سنة ١٨٤٨ دعيت للمثول بين يدي مولاتي في حجرة جلوسها، وهناك قالت لي:

- إن فرنكلن بليك قد عاد من الخارج، وكان مقيمًا عند والده في لندن، وسوف يأتي لزيارتنا غدًا ليمكث معنا حتى يحضر عيد ميلاد راشيل!

ولم أكن قد رأيت مستر فرنكلن منذ كان صبيًا يعيش معنا. وقد أمضى في الخارج كل السنوات التالية لذلك العهد، إذ كان والده الوارث القانوني لإحدى الدوقيات. ولكنه لسوء طالعه لم يوفق إلى إثبات ذلك الحق.

وكانت كبرى شقيقات مولاتي قد تزوجت المستر بليك الذي اشتهر بثرائه الطائل وقضيته الكبرى أمام المحاكم. ثم ماتت زوجته قبل الحكم في القضية ببقاء الدوقية في حوزة واضع اليد عليها. فلمّا تم الأمر على هذه الصورة رأى أن الوسيلة الوحيدة للثأر من وطنه ألا يدع لهذا الوطن شأن تربية ولده، وعلى هذا الأساس بعث مستر فرنكلن إلى مدرسة في ألمانيا!

ولم ينسنا الصبي اللطيف بعد رحيله إلى الخارج، فكان يكتب إلينا بين الحين والحين. وكان قبل سفره قد اقترض مني سبعة شلنات ونصف شلن، فقطعت الأمل في استردادها. وكانت خطاباته إليّ تشير خاصة إلى تورطه في الدين.

ولما بلغ سن الرشد آلت إليه ثروة والدته، وقوامها ربع سنوي مقداره سبع مئة جنيه، فكان ينفقه عن آخره عند وصوله إلى يده. فقد كان في جيب مستر فرنكلن خرق لا سبيل إلى رتقه!

وفي اليوم التالي، لم تكن مولاتي والآنسة راشيل تتوقعان قدوم مستر فرنكلن قبل وقت العشاء، فركبتا لزيارة نفر من الأصدقاء في المنطقة المجاورة.

وكنت أهم بأخذ مقعدي لأسترخي فوقه في الحديقة، عندما استوقفني صوت قرع خفيف بالطبول عند الشرفة الأمامية. فدرت حول الدار فإذا ثلاثة من الهنود يتطلعون نحو البيت، وقد وقف من ورائهم غلام إنجليزي صغير شاحب اللون، يحمل حقيبة في يده، فأدركت أنهم جماعة من المشعوذين المتجولين. وطلب مني أحد الثلاثة الإذن بعرض ألاعيبه على ربة الدار، فقلت له: إن مولاتي في الخارج، وطلبت إليه أن يغادر ورفاقه أرضنا. ثم عدت إلى مقعدي في الجهة الخلفية واستسلمت للنعاس!

وأيقظتني صوت ابنتي بينلوبي حين هرعت إليّ طالبة مني القبض على الهنود الثلاثة فورًا: وذكرت لي أنهم يعلمون من القادم إلينا من لندن، وإنهم يضمرون السوء بالمستر فرنكلن بليك!

ويبدو أن بينلوبي أبصرت الهنود عند انصرافهم، فتسللت متوارية بالسور الذي يفصلنا عن الطريق، وجعلت ترقب هؤلاء الغرباء. فلما تأكدوا أولًا من انفرادهم، قال كبير الهنود للغلام الإنجليزي:

- ابسط يدك!

فبسط الصبي يده على مضض. فصب الهندي في راحته مادة سوداء أشبه بالحبر، ثم لمس الهندي رأس الغلام بيده وجعل يرسم فوقها الإشارات. ثم أمره أن ينظر، فتصلب الفتى حتى غدا كالتمثال في وقفته. وشخص ببصره إلى الحبر، وعندئذ قال الرئيس الهندي له:

- أترى السيد الإنجليزي القادم من الديار الأجنبية؟

فقال الغلام: "نعم أراه!"

فقال الهندي له: "هل يحملها السيد الإنجليزي معه"؟

فأجابه الغلام: "أجل"!

فقال الهندي: "هل سيأتي السيد الإنجليزي إلى هنا في ختام هذا النهار"؟

وأجاب الغلام: "لا أستطيع أن أرى اليوم أكثر من هذا القدر"!

وعندئذ جعل كبير الهنود يلوح بيديه فوق رأس الفتى حتى أيقظه من سباته، وبعد ذلك اتجه الجميع صوب المدينة!

وخطر ببالي أولًا أن ذلك الرئيس الهندي كان قد سمع بتوقع وصول المستر فرنكلن من أفواه الخدم ففكر في انتهاز تلك الفرصة لكسب شيء من المال عن هذا الطريق. ثم خطر ببالي أن في نيتهم العودة للتنبؤ بقدوم المستر فرنكلن مصطنعين السحر. وأن ما سمعته بينلوبي كان تجربتهم لذلك التمويه. غير أن بينلوبي لم تقرني على هذا الرأي. وذكّرتني بالسؤال الثالث الذي وجهه ذلك الهندي للفتى: "هل يحملها السيد الإنجليزي معه"؟ ثم قالت لي: "ماذا يعني؟ وأي شيء يشير إليه"؟

فقلت لها مازحًا: "سنسأل في ذلك المستر فرنكلن يا عزيزتي، إذا واتاك الصبر حتى يحضر"!

على أنها أخذت المسألة مأخذ الجد، وأدهشني أن المستر فرنكلن نفسه كان من رأيها. وقد تبينت ذلك حينما سألته في ذلك بعد حضوره في اليوم نفسه. وستعرف مدى هذا الجد والاهتمام حين أذكر لك أن الشيء الذي أشار إليه ذلك الهندي في سؤاله إنما هو في رأي المستر فرنكلن: "جوهرة القمر"!

وقبل أن ينفسح أمامي الوقت لأستغرق في النعاس مرة ثانية، طلعت عليّ امرأة أخرى، هي خادمة المطبخ، ولاحظت أنها واجمة فقلت لها: "ما خطبك يا نانسي"؟

- لقد تأخرت روزانا عن موعد العشاء مرة أخرى. وقد كُلفت بالبحث عنها!

وكانت روزانا هي خادمة الدار الثانية. وكنت أعطف عليها لسبب سأذكره. فلمّا قرأت في وجه نانسي أنها ستأتي بزميلتها وسط عاصفة من قوارص الكلم، قررت أن أبحث عن روزانا بنفسي، وسألتها: "أين هي الآن"؟

فقالت: "في منطقة الرمال، لقد أصابتها نوبة أخرى من نوبات إغمائها هذا الصباح فاستأذنت في الخروج قليلًا"!

ولا بد أن تحيط بحديث الرمال وبحديث روزانا، ذلك أن موضوع الماسة يتصل بكليهما عن كثب. فمنذ نحو أربعة أشهر، كانت مولاتي في زيارة إصلاحية للنساء. فأشارت لها المديرة إلى روزانا سبيرمان وقصت عليها قصة من البشاعة والشقاء بحيث لا يطاوعني قلبي على إعادتها في هذا المقام. ومحصل هذه القصة أن روزانا سبيرمان لصة، وأن القانون وضع يده عليها. وفي رأي هذه المديرة أن هذه الفتاة ليست بحاجة إلا إلى إتاحة الفرصة لها كي تثبت أنها أهل لاهتمام أي سيدة خيِّرة بشأنها. فقالت مولاتي للمديرة:

- ستتاح هذه الفرصة لروزانا سبيرمان في خدمتي!

وبعد أسبوع جاءتنا روزانا بمثابة الخادمة الثانية للدار!

ولم يعلم أحد قصة الفتاة، اللهم إلا الآنسة راشيل وأنا! ومع أن بنيتها كانت أبعد ما تكون عن قوة، مضت في عملها هادئة لا تشكو ولا تتذمر، مقبلة على أدائه في عناية وإتقان. غير أنها فشلت في تألف قلوب الخادمات، باستثناء ابنتي بينلوبي التي كانت تعطف على روزانا وترق لها ولكن في غير مخالطة أو ألفة.

ولست أدري ماذا كان يبدر من الفتاة حتى نفرن منها، فقد كانت أبعد نساء البيت من الملاحة، فضلًا عن ابتلائها بعدم تجانس كتفيها في الحجم. وأعتقد أن أكره ما كنا نكرهه منها هو صمت لسانها عن الكلام وإيثارها العزلة! أضف إلى ذلك أنه كانت عليها مسحة تباعد بينها وبين سمت الخدم. وتلحقها بسمت السادة. مما كان النسوة يضقن به فيتهمنها بالتعالي والكبرياء!

وكان بيتنا على ساحل يوركشاير بالقرب من النهر. والمتنزهات حولنا جميلة من كل ناحية، إلا الناحية المؤدية إلى أجمة معتمة تنتهي إلى أشد خلجان شاطئنا وحشة وكآبة، عند صخرتين ناتئتين متقابلتين في الماء هناك: إحداها تسمى بصقة الشمال والأخرى بصقة الجنوب! وفيما بينهما أبشع ما في منطقة يوركشاير من

الرمال المغرقة. ويسمى أهل ناحيتنا ذلك الموضع بالرمال المرتعدة. وما من زورق يخاطر بدخول ذلك الخليج. وما من طفل يذهب إلى هناك للهو. ولكن هناك كانت روزانا سبيرمان تؤثر النزهة!

ولما وصلت إلى حيث كانت، رأيتها تبكي فقلت لها:

- خبريني يا عزيزتي، علام تبكين؟

فقالت بهدوء: "على الأيام التي انقضت يا مستر بتريدج"!

- اسمعي. إن حياتك الماضية قد انتهى أمرها. فلماذا لا تنسينها؟

وفي اليوم السابق كانت روزانا قد أزالت عن معطفي بقعة، فذهب معظمها ولكن بقي في موضعها أثر ضئيل، فأشارت الفتاة إلى ذلك الموضع، وقالت:

- لقد ذهبت الوصمة، ولكن مكانها ينبئ عنها!

فلما رأيت نفسي عاجزًا عن التسرية عنها، لم أجد أمامي ما أصنعه سوى أن أعود بها لتناول العشاء، فقلت لها:

- لقد تأخرت عن العشاء يا روزانا!

فوضعت المسكينة يدها في يدي وقالت:

- إنك جد عطوف، ولكني لا أريد أن أتعشى اليوم. فدعني أمكث قليلًا في هذا المكان!

- ولكن ما الذي يأتي بك إلى هذا الموضع المنكود؟

فقالت الفتاة في صوت خفيض:

- إن شيئًا يجذبني إليه. ويخيل لي أحيانًا أن مثواي الأخير ينتظرني هنا!

يا لها من كلمة مشئومة! وقد كان الجواب على طرف لساني، عندما هتف على حين غرة صوت بين التلال باسمي، فتساءلت: "من المنادي"؟

وكررت روزانا سؤالي بصوت خافت. وإذا بنا وقد طلع علينا من بين التلال شاب لامع المقلتين على وجهه ابتسامة خلابة أوشكت أن تغري الرمال المرتعدة نفسها بالتجاوب معها في بشرها، ثم قال ذلك الشاب:

- عزيزي العتيد بتريدج. إني مدين لك بسبعة شلنات ونصف. أتراك الآن قد عرفت من أكون؟

فليباركنا الرحمن! هذا هو المستر فرنكلن بليك وقد جاء قبل الموعد الذي كنا نتوقع حضوره فيه بأربع ساعات كاملة!

ورأيت المستر فرنكلن ينقل بصره بيني وبين روزانا في شيء من الدهشة. ثم احتقن وجهها بحمرة قانية، وأدارت ظهرها وغادرتنا فجأة، على نحوٍ لم أفهم له كنهًا. فقال المستر فرنكلن:

- يا لها من فتاة غريبة الأطوار. إني لأعجب ماذا عساها تكون قد أنكرت مني؟

فأجبته مازحًا: "لعلها يا سيدي استغربت منك ذلك الإشراق الذي أسبغته عليك البلاد الأجنبية"!

وأحسب إجابتي عن سؤال المستر فرنكلن نموذجًا يصلح للترفيه عن جميع الأغبياء ممن لم يرزقوا حذق البيان وحسن الفهم. والواقع أن المستر فرنكلن بتربيته الرائعة، لم يعرف، ولا أنا عرفت على عمري وخبرتي، المغزى الكامن وراء هذا المسلك الذي سلكته روزانا سبيرمان!

رحبت بالمستر فرنكلن قائلًا: "أهلًا بك في بيتك القديم يا مستر فرنكلن".

فأجابني قائلًا: "هناك سبب دعاني إلى الحضور قبل الموعد الذي كنتم تنتظرونني فيه. لقد خيل لي أنني كنت متبوعًا وأنا في لندن طول الأيام الأخيرة. فركبت قطار الصباح رغبة مني في الروغان من شخص غريب أسمر"!

وذكرتني هذه الكلمات بالهنود الثلاثة. فسألته: "ومن يكون ذلك الذي يراقبك يا سيدي؟ ولماذا"؟

- خبرني أولًا عن الهنود الثلاثة الذين حضروا اليوم إلى الدار!

فسألته متعجبًا: "كيف علمت نبأهم يا سيدي؟"

- رأيت بنيلوبي في الدار. وقد أخبرتني!

ولم يكن هناك مناص من أن أشرح له الظروف. فلما فرغت من ذلك جعل يكرر سؤالين مما وجهه الزئيس الهندي إلى الغلام، وأولهما: "هل سيأتي السيد الإنجليزي إلى هنا في ختام هذا النهار"؟ والسؤال الآخر: "هل يحملها السيد الإنجليزي معه"؟ وبعد ذلك قال مستر فرنكلن وهو يخرج من جيبه لفافة صغيرة مختومة:

- يخيل إليّ أن هذه هي الشيء المشار إليه! إنها ماسة خالي هيرنكاسل المشهورة التي تركها بمثابة هدية عيد الميلاد لابنة خالتي راشيل. ولمّا كان والدي يقوم على تنفيذ تعليمات خالي فقد أعطانيها كي آتي بها إلى هنا. وأحب ان أعرف ما الذي يؤخذ على الكولونيل يا بتريدج؟ فإنه من أبناء زمنك وليس من أبناء زمني. فخبرني ماذا تعرف عنه؟!

وكان جادًا في هذا الطلب، فلم يسعني إلا أن قلت له:

- كان لوالد مولاتي خمسة أبناء، إذ أنجب أولًا ولدين ذكرين، وبعد زمن طويل رزق كريماته الثلاث تباعًا. وقد ورث أكبر أولاده الذكور، خالك آرثر، اللقب والضياع. أما الثاني وهو الشريف جون فورث ثروة عظيمة تركها له بعض أقاربه، ودخل الجيش.

وأعتقد أنه كان من أكبر الأوغاد الذين عاشوا على وجه الأرض. وعندما انخرط في سلك الجيش بدأ بفرقة الحرس. والنظام في الجيش دقيق جدًا، فكان الحال أشق مما يطيق الشريف جون. فرحل إلى الهند عسى أن يكونوا هناك أقل صرامة، ولكي ينشد شيئًا من المغامرات في الخدمة حضر الاستيلاء على سيرناجاتام، وبعد أن رقي إلى رتبة لفتنانت كولونيل أصيب بضربة شمس فعاد إلى إنجلترا.

غير أنه عاد بخلق وسلوك أغلقا في وجهه أبواب جميع أفراد أسرته وقالت مولاتي إن أخاها لا يمكن أن يدخل لها دارًا قط!

وقيل إنه حصل على جوهرته الهندية عن طريق لم يكن يجرؤ على الاعتراف به لأحد. ولم يحاول أن يتصرف فيها بالبيع. بل لم يطلع عليها مخلوقًا على الإطلاق.

وقد هُدد في حياته مرتين وهو في بلاد الهند. والاعتقاد السائد أن الباعث في المرتين هو جوهرة القمر. ولكنه احتفظ بالماسة برغم محاولات اغتياله في الهند، ثم احتفظ بها برغم تقوُّل الناس عليه في إنجلترا.

ولم أره بعد عودته إلى إنجلترا وجهًا لوجه اللهم إلا مرة واحدة. فمنذ سنتين حضر الكولونيل إلى دار مولاتي في لندن. وكان ذلك في ليلة عيد ميلاد الآنسة راشيل في الحادي والعشرين من يوليو. وأبلغت أن سيدًا يرغب في مقابلتي، فتوجهت إلى البهو حيث وجدت الكولونيل، فقال لي:

- اذهب إلى شقيقتي وقل لها إنني حضرت زائرًا كي أتمنى لابنة أختي عودًا حميدًا متكررًا لهذا اليوم السعيد!

فصعدت حاملًا رسالته، تاركًا إياه في البهو. وفي مولاتي شيء من حدة طبع الأسرة، فقالت لي عندما سمعت هذه الرسالة:

- قل للكولونيل هيرنكاسل إن الآنسة فيرندر مشغولة، وأنني شخصيًا أرفض مقابلته!

فهبطت إليه، وأبلغته الرسالة على الوجه التالي:

- إن مولاتي والآنسة راشيل يؤسفهما أنهما مشغولتان، ويلتمسان معذرتك في عدم التمتع بشرف مقابلتك!

فاستقرت عيناه على وجهي، وكانتا رماديتي اللون في لمعان أخاذ. ثم قال:

- شكرا لك يا بتريدج. وسوف أتذكر عيد ميلاد ابنة شقيقتي!

ثم انصرف من البيت على الأثر!

وبعد انقضاء ثمانية عشر شهرًا، وصل إلى مولاتي خطاب من رجل كبير من رجال الكنيسة يخبرها بأن الكولونيل قد غفر لشقيقته وهو على فراش الموت، كما أنه غفر

لسائر الناس، وقد لقي أجله في أمن وسلام كاملين!

وقد وقعت قصة طرد الكولونيل من باب شقيقته في يوم عيد ميلاد ابنتها موقع الدهشة من مستر فرنكلن على ما يظهر، إذ قال لي:

- هناك ثلاثة أسئلة عظيمة الأهمية فيما يختص بهدية الكولونيل في عيد ميلاد بنت خالتي راشيل. وأول هذه الأسئلة: "هل كانت ماسة الكولونيل موضوع مؤامرة في بلاد الهند"؟ والسؤال الثاني: "هل لحقت به المؤامرة إلى بريطانيا"؟ والسؤال الثالث: "هل قصد الكولونيل أن يترك عمدًا لشقيقته تركة من المتاعب والخطر عن طريق ابنتها"؟

ولئن كان الأمر كذلك، فقد أصبح بيتنا الهادئ مهددًا بالمخاطر بسبب ماسة هندية شيطانية، تجلب في أعقابها أشرارًا وأوغادًا أحياء، جلبهم علينا انتقام رجل أصبح في عداد الأموات!

الماسة.. وراشيل

أخبرني مستر فرنكلن أن مكتشفاته بشأن الكولونيل جون هيرنكاسل والماسة بدأت بزيارة قام بها لمحامي الأسرة. ومضى يحدثني في ذلك فقال:

- لعلك تذكر يا بتريدج ذلك الوقت الذي كان فيه والدي يحاول إثبات أحقيته في الدوقية. وقد تبين في ذلك الحين أن شقيق زوجته يملك أوراقًا معينة تفيد قضيته. فقام بزيارة الكولونيل بحجة الترحيب بعودته إلى إنجلترا على أن الكولونيل لم ينخدع بهذه المجاملة وقال له: "أنت تريد مني شيئًا وإلا لما زرتني". فاعترف له والدي بحاجته إلى تلك الأوراق. ورد الكولونيل بأنه يريد شيئًا في مقابلها. ثم أخبره بأنه يملك ماسة من أضخم ماسات الدنيا. وأنه لا يأمن على نفسه ولا عليها طالما جمعهما مكان واحد. ولهذا قرر أن يتركها في رعاية شخص آخر له أن يودعها خزانة مصرف أو متجر مجوهرات. وفي يوم معين من كل سنة يكتب إليه الكولونيل ليعرف أنه على قيد الحياة، فإذا انتهى ذلك اليوم ولم يكتب إليه كان هذا دليلًا على أنه مات. وفي هذه الحالة ينبغي أن تفض أوراق معينة مختومة تودع مع الماسة!

وقبل والدي الاضطلاع بهذه المسئولية. وأودعت الماسة والأوراق المختومة في خزانة مصرفه. وجعل محامينا المستر براف يتلقى إشعارات الكولونيل ويفضها في أوقاتها. ومنذ نحو ستة أو ثمانية أشهر تغيرت ألفاظ تلك الخطابات لأول مرة، إذ جاء فيها: "سيدي، يقولون لي إنني على شفا الموت. فأحضر لتعينني على كتابة وصيتي". فذهب إليه مستر براف. وكانت الوصية بسيطة ذات ثلاثة بنود. وبموجب البند الثالث ترك جوهرة القمر بمثابة هدية عيد ميلاد لابنة شقيقته، على أن يتولى والدي القيام بتسليمها إياها. وكان من الضروري أن تقدر قيمة الماسة قبل إقرار الوصية. وقد أجمع كل الجوهريين على أنها من أكبر الماسات في العالم. وبرغم وجود عيب صغير في مركز الجوهرة قدر ثمنها بما لا يقل عن عشرين ألف جنيه. وقام والدي بفض الأوراق المختومة التي تركت مع الماسة، فإذا بها تقضي في حالة وفاة الكولونيل مقتولًا بإرسال جوهرة القمر إلى أمستردام سرًا حيث تقطع إلى أربع قطع أو ست ثم تباع!

ثم التفت إلى مستر فرنكلن عند ذلك واستطرد قائلًا:

- إن الماسة كما ترى يتوقف بقاؤها صحيحة على عدم وفاة الكولونيل مقتولًا. فما معنى هذا؟

- معناه خفض قيمة الجوهرة والتهرب من الأوغاد بهذه الطريقة!

- كلا! فقد استفسرت عن ذلك فعلمت أن تجزئة الماسة تأتي بثمن أكبر من ثمنها الحالي. فأربعة جواهر أو ستة سليمة غير معيبة يمكن الحصول عليها من تجزئتها، قيمتها أكبر من قيمة الجوهرة الضخمة المعيبة. فإذا كان الغرض من المؤامرة هو سرقة الماسة طمعًا في الربح، فتعليمات الكولونيل تجعلها هدفا أعظم للسرقة!

- وما هي هذه المؤامرة؟

- إنها مؤامرة دبرها الهنود أصحاب الجوهرة الأصليون، وهي تستند إلى معتقدات هندية قديمة. وقد أيدني في هذا الظن ما وجدته مسطورًا في ورقة عتيقة من أوراق الأسرة جئت بها معي. والسؤال الذي يهمنا الآن هو "هل المؤامرة ضد جوهرة القمر لا تزال قائمة بعد وفاة الكولونيل؟ وهل كان هو يعلم ذلك حين تركها هدية عيد ميلاد لبنت شقيقته"؟ والواقع أنني بعد أن سحبت الماسة من المصرف خيل إليّ أنني متبوع في الشوارع بواسطة رجل أسمر. فعملت على الروغان منه وركبت قطار الصباح بدلًا من قطار بعد الظهر. ولكن هأنذا أجد ثلاثة من الهنود قد سبقوني إلى البيت. فيجب علينا أن نواجه مسألة الدافع الذي حدا بالكولونيل إلى أن يترك الماسة لبنت شقيقته!

ثم أعطاني أوراقًا من وصية الكولونيل قرأت فيها:

- ثالثًا، أترك لبنت شقيقتي راشيل فيرندر، الابنة الوحيدة لشقيقتي جوليا فيرندر - في حالة وجود والدتها على قيد الحياة في يوم عيد ميلاد راشيل فيرندر التالي لوفاتي مباشرة - الماسة الصفراء التي في حوزتي. وأود أن تبلغ شقيقتي أنني عفوت عن إهانتها لي حينما قام خادمها بناءً على أوامرها بإغلاق باب بيتها في وجهي يوم عيد ميلاد ابنتها!

فلما فرغت من تلاوتها قال مستر فرنكلن:

- الآن ما قولك؟ أتراني بإحضاري جوهرة القمر إلى هنا أخدم رغبته في الانتقام؟ أم تراني أقدم البرهان على أنه أراد أن يصلح ما بينه وبين شقيقته؟

- لا تسألني هذا السؤال يا سيدي!

- لماذا ترك خالي الماسة لراشيل، ولم يتركها لخالتي؟

- إنه كان يعلم أنها لا تقبل هدية منه!

- ومن أين له أن يعلم أن راشيل لا ترفضها كذلك؟

- وهل هناك يا سيدي أي فتاة يمكن أن ترفض هدية في عيد ميلادها كهذه الهدية؟

- وكيف يتسنى لنا أن نعلل منحه راشيل هدية عيد الميلاد هذه مشروطة بأن تكون أمها على قيد الحياة؟

- إن كان قد ترك لشقيقته تركة من الأخطار عن طريق ابنتها، فيلزم في هذه الحالة أن تكون شقيقته على قيد الحياة كي تعاني متاعبها!

- إني أرى أن قصد الكولونيل ربما كان التدليل لشقيقته على عفوه عنها وهو على فراش موته. وذلك تفسير يخالف تفسيرك، ويساويه في قوة الاحتمال. ولست أحب أن أروع خالتي بغير مبرر. فماذا عساك فاعل لو كنت في مكاني يا بتريدج؟

- ما زالت بيننا وبين عيد ميلادها أربعة أسابيع تقريبًا. فلننتظر حتى نرى ماذا سيحدث في خلال تلك المدة!

- ولكن ماذا نصنع بالماسة إلى ذلك الحين؟

- ضعها في مصرف فريز نجهول، أقرب مدينة إلينا!

فقفز واقفًا على قدميه وقال لي:

- لعمري إنك تساوي وزنك ذهبًا يا بتريدج!

وعدنا إلى الدار على عجل فأسرجنا الجياد، ثم ركب مستر فرنكلن إلى المدينة كي يودع الماسة الملعونة كما كانت في خزانة مصرف!

وفي وقت متأخر بعد الظهر، رجعت مولاتي والآنسة راشيل إلى الدار. وقد أدهشهما بطبيعة الحال أن تسمعا بوصول المستر فرنكلن بليك، وبأنه انصرف ثانية ممتطيًا صهوة جواد. فزعمت لهما أن وصوله بالقطار المبكر لم يكن سوى نزوة من نزواته. فلما سئلت عن انطلاقه ثانية أهو أيضًا نزوة من نزواته، قلت متخلصًا:

- أجل، هو كذلك!

ولما عدت إلى حجرتي دخلت عليّ بينلوبي، فطلبت مني أن أخبرها ماذا جرى للفتاة روزانا سبيرمان، لأنها عادت إلى البيت في حالة غريبة وأخذت تلقي مئات الأسئلة عن مستر فرنكلن بليك. ثم غضبت من بنيلوبي لأنها ظنت أن سيدًا غريبًا يمكن أن يكون ذا أهمية لديها على الإطلاق!

وتساءلت بنيلوبي: "هل يمكن أن تكون روزانا قد عرفت المستر فرنكلن من قبل"؟

فقلت لها: "هذا مستحيل، مستحيل تمامًا! وإني واثق أن دهشة المستر فرنكلن كانت صادقة حين رأى الفتاة تنظر إليه"!

وعندئذ قالت بنيلوبي: "ليس هناك سوى تفسير واحد هو أن روزانا وقعت في هوى المستر فرنكلن من أول نظرة"!

فانفجرت ضاحكًا إلى أن انهمرت الدموع على وجنتيّ. ولم يرُق هذا الضحك لبنيلوبي فقالت لي:

- ما علمت عليك قبل اليوم هذه القسوة يا أبتاه!

فشعرت بالخجل من كلمات ابنتي. وأحنقني على نفسي أن يكون هذا هو شعوري حقًا!

ولم يعد المستر فرنكلن من فريزنجهول إلا بعد الغروب. ولم يلتقِ بالهنود في

ذهابه ولا في أوبته. وقد أودع جوهرة القمر في المصرف. واحتفظ بالإيصال في جيبه!

وقرب منتصف الليل، طفت مع صمويل الساقي بالبيت لنحكم غلق منافذه. حتى إذا انتهينا من غلق جميع الأبواب ما عدا الباب الجانبي المفضي إلى الشرفة، صرفت صمويل إلى فراشه، وخرجت لأستنشق نسمة من الهواء. وكان الليل ساكنًا دافئًا، والقمر بدرا. وقد ساد الهدوء خارج البيت حتى أنني كنت أسمع خرير ماء البحر على شدة خفوته. وكانت الشرفة حالكة، ولكن ضوء القمر الباهر يغطي ممشى الحديقة. فوجهت نظري إلى تلك الناحية، وإذا بي ألمح شبح شخص وراء ركن البيت!

ولم أرفع الصوت بالنداء، بل أسرعت نحوه، ولكن وقع خطواتي الثقيلة لشيخوختي نبهته قبل أن أتسلل لأفاجئه، فانطلق يجري نحو الطريق العام بسرعة. فعدت لآتي بصمويل، ثم درنا حول البيت. فلما تأكدنا ألا أحد مختبئ هناك عدنا أدراجنا. وعلى الممشى الذي رأيت فوقه الشبح لمحت شيئا ناصعًا. فتناولته، وإذا به زجاجة صغيرة بها سائل طيب الرائحة في سواد الحبر. فتذكرت ما أخبرتني به بنيلوبي عن الهنود وصبهم الحبر في كف الصبي. وأدركت أنني أزعجت الهنود الثلاثة وهم يحاولون اكتشاف مكان وجود الماسة!

لم يحدث ما يستحق التسجيل بين وصول المستر فرنكلن بليك ويوم عيد ميلاد الآنسة راشيل. على أنني في اليوم التالي، أي في اليوم السادس والعشرين من مايو، أطلعت المستر فرنكلن على زجاجة الحبر الزكي الرائحة. فرأى أن هؤلاء الهنود لم يكونوا يبحثون عن الماسة فقط، بل كانوا أيضًا من الغفلة بحيث يعتقدون بقوة سحرهم. ثم قال:

- صدقني، إن الهنود ظنوا أننا سنحتفظ بالماسة هنا فجاءوا بالغلام ليدلهم على موضعها والطريق إليها!

- أتظنهم يا سيدي سيحاولون مرة أخرى؟

- إن هذا يتوقف على ما يستطيع الغلام حقيقة أن يصنعه. فإذا تمكن من رؤية

الماسة من وراء حديد خزانة المصرف. فلن تحظى بزيارة من هؤلاء الهنود في الوقت الحاضر. أما إذا لم يستطع ذلك فسوف تتاح لنا فرصة أخرى لإلقاء القبض عليهم بأسرع وقت!

ومهما يكن من أمر، وسواء أكان الهنود قد علموا بتوجه المستر فرنكلن إلى المصرف، أم أن الغلام استطاع حقيقة أن يرى الماسة - ولا إخاله قد استطاع - فما من هندي اقترب من الدار بعد ذلك طوال الأسابيع التي سبقت عيد ميلاد الآنسة راشيل!

وفي التاسع والعشرين من مايو، اهتدى المستر فرنكلن والآنسة راشيل إلى وسيلة جديدة لتمضية الوقت. وعندي من الأسباب ما يدعو إلى تسجيل العمل الذي راق لهما في هذا المقام، كما ستتبين فيما بعد!

كانت للمستر فرنكلن هواية يسميها: "الرسم الزخرفي" فقد اخترع على حد قوله لنا مزيجًا جديدًا يضاف إلى الدهان وقد أطلق عليه اسم: "العجلة" ولست أدري سر تركيبه على كل حال. أما أثره فهذا ما أستطيع أن أذكره في كلمتين: فهو ذو رائحة نفاذة!

ورغبت الآنسة راشيل رغبة شديدة في تجربة هذا المزيج الجديد. فبعث المستر فرنكلن في طلب المواد، ثم مزجها بنفسه، فكانت لها رائحة جعلت الكلاب نفسها تعطس. وانكبت الآنسة راشيل على العمل، تطلي حجرة جلوسها الصغيرة الخاصة بها. وبدأ بالجانب الداخلي من بابها. فنزع مستر فرنكلن الطلاء الأصلي الجميل وأعد ما سماه سطح العملية. ثم عاون الآنسة راشيل على تغطية ذلك السطح بصور عصافير وأزهار وما شاكل ذلك. وكانا فيما يبدو لا يملان هذا العمل. فما لم يركبا الجياد، أو يذهبا لزيارة الأصدقاء أو يجلسا لتناول الطعام، فهناك تجدهما وقد تقارب رأساهما دائبين دأب النحل على إفساد ذلك الباب!

والتاريخ الذي يستحق تسجيله بعد ذلك، هو يوم الأحد الرابع من شهر يونيه. فإننا لمّا رأينا المتعة التي يشعر بها المستر فرنكلن والآنسة راشيل بهذه الصحبة الثنائية، بدأنا نتحدث في بهو الخدم عن احتمال زواجهما. فقال نفر منا: إن القران سيتم قبل

نهاية الصيف. وقال آخرون - وأنا على رأسهم - إن ذلك محتمل. ولكننا نشك في أن يكون العريس هو المستر فرنكلن بليك فما من شك لدى أحد منا في أن مستر فرنكلن كان يهواها. ولكن المعضلة في فهم الآنسة راشيل، واسمح لي الآن أن أحدثك عنها.

إن عيد ميلاد مولاتي الصغيرة في الحادي والعشرين من يونيه الحالي هو عيد ميلادها الثامن عشر. فإن كنت ممن يميلون للسمراوات، فأنا ضامن لك أن الآنسة راشيل من أبدع الفتيات التي وقعت عليهم عينك. فشعرها حالك السواد جدًا، وعيناها تباريان شعرها في السواد، وبشرتها ذهبية كأنها الشمس بعينها. يضاف إلى هذا أن صوتها رائق، وأن لها ابتسامة تشرق بالروعة في عينيها قبل أن ترتسم على شفتيها!

ثم ماذا بعد ذلك عن طبعها وسجاياها؟

كان للعزيزة الحسناء الآنسة راشيل، على كل ما فيها من طيبة وخير، عيب واحد غير مألوف في بنات سنها. وقصارى ذلك العيب استقلالها في الرأي، وإصرارها على أن تفعل ما يروق لها. ولا بأس بذلك في هينات الأمور. ولكن في كبرياتها لا تحمد العقبى، فلم تكن تسأل أحدًا النصح، ولا تفضي لأحد بسر، حتى ولا لوالدتها. على أنها لم يكن فيها شيء من الختل والخداع. فما سمعتها أبدًا تقول لا وهي تعني نعم. وإني لأذكر أن الصغيرة الطيبة القلب قد تحملت في طفولتها أكثر من مرة التقريع والعقاب على خطأ اقترفته صديقة لها تؤثرها بحبها!

وأحسبني الآن قدمت لك الآنسة راشيل، وهذا يفضي بنا إلى موضوع رأي الفتاة الخاص في الزواج. ففي اليوم الثاني عشر من يونيه أرسلت الدعوة إلى سيد في لندن كي يأتي لحضور عيد ميلاد الآنسة راشيل. وهذا السيد هو الرجل السعيد الذي اعتقدت أنها شغلت قلبها به. وهو كالمستر فرنكلن ابن خالة لها. واسمه المستر جودفري إيبلوايت. ومهما يكن من مبلغ خفة روح المستر فرنكلن وبراعته، ففرصته في رأيي للفوز بمولاتنا الصغيرة ضعيفة جدًا!

ويأتي في المقام الأول اعتبار الطول، فالمستر جودفري كان أطول الرجلين إذ يزيد ارتفاع قامته على ستة أقدام. ثم إن له لونًا أبيض محمرًا جميلًا، وشعرًا أشقر

رائعًا طويلًا. ولكن لماذا أتعب نفسي في وصف شخصه؟ إن جميع رواد لجان البِر النسوية في لندن يعرفون المستر جودفري إيبلوايت كما أعرفه. فهو محامٍ بحكم المهنة، وملازم لصحبة السيدات بحكم المزاج، ورجل إحسان باختياره. وما من مائدة في أي مكان تجلس السيدات حولها للحديث، إلا كان المستر جودفري في صدرها يدير دفة الحديث. أما إذا نشدت خطيبًا في حفل للبِر، فلن تجد له نظيرًا في استدرار الدموع والنقود. فهو محب للجميع. محبوب من الجميع.. فأي فرصة للمستر فرنكلن أمام منافس من هذا الطراز؟!

وفي اليوم الرابع عشر، وصل رد المستر جودفري بتلبية دعوة مولاتي، وقد طواه على مقطوعة من الشعر لمناسبة ما سماه مولد بنت خالته. وقد بلغني أن الآنسة راشيل انضمت إلى المستر فرنكلن في السخرية من هذه الأشعار على مائدة العشاء. وسألتني بنيلوبي في نشوة الظفر عن رأيي في ذلك، فقلت لها:

- انتظري حتى تعقب أشعار المستر إيبلوايت طلعته ذاتها!

وكان جواب ابنتي أن المستر فرنكلن ربما جرب حظه قبل وصوله. والواقع أن المستر فرنكلن لم يدع فرصة إلا انتهزها للفوز بحسن القبول لدى الآنسة راشيل. فمن ذلك أنه، وهو الذي كان يحب التدخين حبًا لا يفوقه فيه أحد ممن عرفتهم، أقلع عن التدخين بتاتًا لأنها قالت له إنها تكره رائحة السجائر. وساء نومه جدًا بعد ذلك، لافتقاده الطباق الذي تعوده، فكان يهبط علينا في الصباح بعد الصباح ظاهر التعب، حتى أن الآنسة راشيل رجته بنفسها أن يعود للتدخين. ولكنه أبى إباء شديدًا أن يفعل شيئًا يسبب لها الكدر لحظة واحدة!

ولعلك تقول: إن حبًا كذلك الحب لا يمكن أن يخطئ طريقه للتأثير المنشود في الآنسة راشيل. ولا أنكر ذلك. ولكن ما رأيك في أنها كانت تحتفظ في حجرة نومها بصور شمسية للمستر جودفري؟

وفي اليوم التاسع عشر من الشهر دعونا الطبيب لعيادة روزانا سبيرمان. فقد حيرتني هذه الفتاة أكثر من مرة منذ وجدتها عند الرمال المرتعدة. وما زالت بنيلوبي تظن أن زميلتها الخادمة عشقت المستر فرنكلن، ولكن سلوك هذه الخادمة أخذ يزداد

غموضًا، وأضرب مثلًا لذلك أنها كانت تدأب على اعتراض طريق المستر فرنكلن، في هدوء وتسلل، ولكن ذلك لا يخفف من حقيقة الواقع. أما هو فلم يكن يعيرها من الالتفات أكثر مما يعير القطة!

وترتب على ذلك أن فقدت المسكينة شهيتها للطعام، وكانت عيناها تحملان في الصباح آثار بكائها طول الليل. ثم وقعت بنيلوبي ذات يوم على اكتشاف فقد ضبطت روزانا عند مائدة زينة المستر فرنكلن وهي تنزع وردة كانت الآنسة راشيل قد أعطته إياها ليزين بها عروة صدره، ثم تضع في مكانها وردة أخرى من عندها. وزاد الطين بلة أنها أمست على غير ما يجب من التبجيل عندما توجه إليها الآنسة راشيل الخطاب!

وفطنت مولاتي إلى ذلك التغير الطارئ فسألتني عن رأيي في المسألة، فقلت لها إنني أظنها متوعكة. وانتهى الأمر بإرسالنا في طلب الطبيب، فقرر أنها تشكو من ضعف أعصابها، وعندئذ اقترحت مولاتي أن تبعث بها لتبديل الهواء في بعض ضياعنا. فأخذت الفتاة تتوسل، والدمع يترقرق في عينيها، كي يسمح لها بالبقاء. وفي ساعة من ساعات النحس نصحت لمولاتي بأن تمهلها بعض الوقت على سبيل التجربة!

وفي العشرين وصلت رسالة من مستر جودفري بأنه يصل في اليوم التالي ومعه شقيقتاه في ساعة العشاء.

وهذا يفضي بنا إلى عشية عيد الميلاد.

حديقة الورد

في الحادي والعشرين من يونيه، وبعد الفراغ من تناول طعام الإفطار، اجتمع بي المستر فرنكلن للتحدث في شأن جوهرة القمر. فاليوم هو عيد الميلاد، وقد حان إذن أن يستردها من المصرف في فيرزنجهول ليضعها بين يدي الآنسة راشيل. ورتب الأمر بحيث يركب إلى فريزنجهول بعد الغداء ليعود بالماسة، ومعه المستر جودفري وشقيقتاه، وبذلك يكون في صحبتهما في طريق العودة.

فلما استقر على ذلك الرأي عاد إلى الآنسة راشيل فقضيا فترة الصباح وجانبًا من بعد الظهر في زخرفة الباب، وعلى مقربة منهما وقفت بنيلوبي لتمزج الألوان حسبما يريدان. وبلغت الساعة الثالثة قبل أن يكفا عن العمل. غير أنهما أتما ما انتوياه، ألا وهو الفراغ من ذلك الباب في يوم عيد الميلاد، وما كان أعظم زهوهما به!

وبعد الغداء ركب المستر فرنكلن إلى فريزنجهول، ليستقبل أبناء خالته فيما زعم لمولاتي، وليحضر جوهرة القمر كما أعلم أنا دون سائر الناس.

وكان عندي ما يشغل ذهني في فترة غياب المستر فرنكلن، إذ رتبت ما يتعلق بأنواع الشراب، ثم تحدثت إلى الخدم الذين سيقومون على خدمة مائدة العشاء وبعد ذلك اعتكفت في حجرتي لأستريح قليلًا قبل أن يصل المدعوون. ثم صحوت على وقع حوافر جياد في الخارج فتوجهت إلى الباب لأجد المستر فرنكلن وأبناء خالته الثلاثة!

ومن العجيب أن المستر جودفري بدا لي حينئذ على غير عادته من المرح، فقد كان واجمًا وجوما لم أعرف له تعليلا. وقد وجدت فرصة لسؤال إن كان قد أتى بالماسة فأومأ بالإيجاب، فسألته: "هل رأيت أثرًا للهنود"؟ فأجاب بالنفي. ثم اتجه نحو مولاتي في حجرة الاستقبال الصغيرة وبعد دقيقة رن الجرس وكلفت بنيلوبي باستدعاء الآنسة راشيل. وبعد نحو نصف ساعة دخلت الحجرة متعللًا بالسؤال عن تعليمات تتعلق بالعشاء. وهناك وجدت الآنسة راشيل واقفة وكأنها في حلم، وماسة الكولونيل المشئومة في يدها. ووقف خلفها المستر جودفري يصفق بيديه ويقول

بصوت رخيم خافت:

- ما أجملها! ما أجملها!

أما المستر فرنكلن فجلس وقد تعلقت عيناه في قلق بموضع النافذة حيث وقفت مولاتي وفي يدها وصية الكولونيل. ولما سألتها عن التعليمات رفعت إليّ وجهها فرأيت أمارات الحدة الموروثة في الأسرة ترتسم حول فمها، ثم قالت لي:

- تعالَ إلى حجرتي بعد نصف ساعة، فسيكون عندي ما أقوله لك!

وكان واضحًا أن المعضلة التي حيرتني وحيرت المستر فرنكلن تحيرها الآن أيضًا. فهل هذه الهبة برهان على أنها عاملت شقيقها معاملة ظالمة قاسية، أم هي برهان على انه أسوأ مما تظن؟ وإنهما لسؤالان من العسير على مولاتي أن تقضي فيهما برأي وهي ترى ابنتها واقفة وفي يدها هدية الكولونيل!

وقبل أن أتمكن من مبارحة الحجرة، استوقفتني الآنسة راشيل وقالت لي وهي تضع الجوهرة أمام ناظري:

- انظر يا جبريل!

كان الله لنا! يا لها من ماسة! يكاد حجمها يبلغ حجم بيض الدجاج! وحينما تنظر إلى ذلك الحجر الكريم إنما تنظر في أعماق من اللون الأصفر تجتذب عينيك حتى لا تستطيع أن تحولهما عنها. فلا غرو أن تطير الآنسة راشيل فرحًا. والواقع أن الشخص الوحيد الذي احتفظ باتزانه كان المستر جودفري الذي جعل ينقل بصره في إشفاق بيني وبين الماسة ثم قال:

- كربون يا بتريدج! إن هي إلا كربون على كل حال!

وبعد نصف ساعة توجهت إلى حجرة مولاتي. وما جرى بيننا هو في الجملة ما كان قد جرى بيني وبين المستر فرنكلن من تخمين وتساؤل، مع مراعاة أنني تحاشيت أن أذكر لها أمر الهنود. وتبينت أن مولاتي تنظر إلى الموضوع نظرة أشد ما تكون سوادًا، ولهذا فهي راغبة أعظم الرغبة في أن تخرج جوهرة القمر من حوزة ابنتها في أقرب

فرصة!

وفيما أنا أرتدي ملابسي كي أستقبل الضيوف، دخلت عليّ بنيلوبي متطلقة الوجه وطبعت قبلة على قمة صلعتي، ثم همست قائلة:

- عندي لك أخبار يا أبتاه، لقد رفضته الآنسة راشيل!

- من هو الذي رفضته؟

- رجل جمعيات البر النسوية يا أبتاه! المخلوق الخبيث الكرية! فقد رأيته يتنحي بها جانبًا في حديقة الورد، فانتظرت حتى أرى على أي صورة يرجعان. وكانا قد دخلاها وقد تشابك ذراعاهما ضاحكين، ثم خرجا منها يسيران متباعدين وهما أشد ما يكونان جدًا. فلم أشعر بالفرح كما شعرت به عندئذ يا أبتاه! لأنه توجد في العالم امرأة واحدة على الأقل تستطيع أن تقاوم المستر جودفري إيبلوايت. وعند الجهة الأخرى من الأشجار توقف المستر جودفري عن السير وقال لها: "أتحبين أن أقف هنا كأن شيئًا لم يحدث"؟ فأجابته الآنسة راشيل قائلة: "لقد قبلت دعوة والدتي. ولك أن تبقى طبعًا، اللهم إلا إذا كنت تحب أن تثير فضيحة! فانسَ ما كان يا جودفري ولنبقَ ابني خالة". ثم قدمت إليه يدها فقبلها وتركته. ولم أرَ في حياتي رجلًا أشد منه انزعاجًا في تلك اللحظة. ثم قال من بين أسنانه: "إنه لشيء مربك. مربك جدًا"!

وقبل أن أتمكن من الرد عليها بكلمة واحدة سمعت أصوات عجلات العربات، فقد وصل أول فوج من المدعوين للعشاء!

عودة الهنود الثلاثة

بلغت جملة المقاعد حول مائدة العشاء أربعة وعشرين، بما في ذلك مقاعد أعضاء الأسرة. وليس من داعٍ للتحدث عن كل هؤلاء الضيوف، فأهمهم اثنان، هما الجالسان عن يمين الآنسة راشيل ويسارها، وكانت متزينة بهديتها الرائعة "جوهرة القمر" التي استطاع المستر فرنكلن بواسطة سلك من الفضة أن يجعلها على هيئة بروش. وقد بهر الجميع بحجمها وجمالها. ولكن لم يقل أحد شيئًا غير عادي عن الماسة إلا هذان الضيفان.

وكان الجالس عن يسارها هو الطبيب كاندي طبيبنا، وهو رجل لطيف ضئيل لا عيب فيه إلا ولعه بالمزاح. وما أكثر ما كان يرتكب في المحافل من أخطاء، مع أنه في مهنته الطبية صاحب دقة وحذق. وقد مزح مع الآنسة راشيل بصدد الماسة مقترحًا عليها ان تتركها له فيأخذها إلى بيته ويحرقها ليثبت بالتجربة العلمية أن الماس من عنصر الفحم. فبدا على مولاتي عندما سمعت هذا المزاح أنها تتمنى لو أن الطبيب قرن القول بالفعل!

أما عن الزائر الآخر الجالس عن يمينها فرحالة مشهور بأسفاره في أقطار الهند هو المستر ميرثويت، الذي جاب متنكرًا مناطق لم يجسر أوروبي من قبله على التجوال فيها. وكان رجلا طويل القامة نحيلًا صموتًا. وقد استأثرت جوهرة القمر باهتمامه. إذ يبدو أن شهرتها بلغت مسامعه في بعض أسفاره المحفوفة بالأخطار في بلاد الهند. فجعل يرمقها صامتًا برهة طويلة. ثم قال بهدوء:

- إن ذهبت يومًا إلى بلاد الهند يا آنسة فيرندر فلا تحملي معك هدية خالك. فإني أعرف مدينة هناك لو ظهرت فيها على هذه الصورة لم تأمني على حياتك مدى خمس دقائق!

وكانت الآنسة راشيل آمنة على نفسها في إنجلترا، ولذلك لم تجد غضاضة في السماع بخطر يتهددها في الهند! أما أنا فتشاءمت، وثقل على صدري أن ألاحظ أثناء العشاء فترات من الصمت لا تدل على الارتياح.

كان المستر جودفري، الذي يعهده الناس طلق اللسان في المجامع، يبدو عازفًا عن الكلام. وقد خص السيدة الجالسة بجواره وهي من بنات الأسرة بحديث خافت سمعت جانبًا منه، فأدركت مدى الخسارة التي عادت على الجمع من الحرمان من ذلك الحديث. ولا يذهبن بك الظن أن المستر فرنكلن قد عمل على إشاعة جو من المرح في تلك المأدبة، فهو برغم سروره الظاهر لم يكن موفقًا معظم الوقت في اختيار الموضوعات أو اختيار من يوجه إليه الكلام. فقد شن على الأطباء مثلًا حملة جعلت الدكتور كاندي المسكين الرضي الخلق ينتفض غيظًا. وبدأت المشاحنة بينهما عندما شكا مستر فرنكلن من سوء نومه، وذكر له كاندي أن أعصابه في حاجة إلى علاج. فأجابه فرنكلن بأن العلاج الطبي هو والتخبط في الظلام سيان. فقال كاندي: إن المستر فرنكلن يتخبط فعلا في الظلام بحثًا عن النوم ولن يهديه إليه إلا العلاج الطبي. واستمر الحديث بينهما على هذا النحو إلى أن ثار ثائر كاندي دفاعًا عن مهنته، فاضطرت مولاتي للتدخل منعًا للشجار. وتنفس الجميع الصعداء عندما نهضت سيدتي ودعت السيدات إلى ترك الرجال يعكفون على نبيذهم!

ولم أكد أضع الزجاجة أمام مستر إيبلوايت الشيخ حتى سمعت من جهة الشرفة صوتًا أفزعني كثيرًا، فتبادلت النظرات مع المستر فرنكلن. إذ أن ذلك الصوت كان دقات الطبل الهندي. ومعنى هذا أن المشعوذين عادوا إلينا بعودة جوهرة القمر! وأسرعت خارجًا لأطردهم. ولكن كان قد سبقني للأسف اثنان من الضيوف وأظهرا رغبتهما في مشاهدة ألاعيب الهنود. ثم تبعهما نفر من السيدات والسادة!

ووقفت مستر فرنكلن بجوار الآنسة راشيل، ووقفت أنا وراءها. ولئن صحت ظنوننا فها هي ذي واقفة خالية الذهن تمامًا من الحقيقة، تعرض على أنظار الهنود الماسة فوق ثوبها!

ولا أستطيع أن أذكر لك شيئًا عن ألعابهم. فأول شيء لفت نظري هو ظهور الرحالة ميرثويت فجأة وراء المشعوذين ثم حديثه إليهم فجأة بلغة بلادهم، فأخذ الهنود وتطلعوا إليه بسرعة متنمرين. ولكنهم لم يلبثوا أن انحنوا أمامه باحترام عظيم على طريقتهم الثعبانية. وبعد بضع كلمات انسحب مستر ميرثويت، والتفت الرئيس

الهندي إلى الزائرين. وقد لاحظت أن وجهه البني اللون قد أربد عندما تحدث إليه المستر ميرثويت. ثم قال الرجل لمولاتي وهو ينحني لها: "إن الاستعراض قد انتهى". ثم طاف بنا الغلام بقبعته. وبعد ذلك قمت أنا والساقي بمصاحبة الهنود إلى أن خرجوا من أرضنا!

وفي طريق العودة التقيت بالمستر فرنكلن والمستر ميرثويت يسيران ببطء بين الأشجار. فدعاني المستر فرنكلن للانضمام إليهما، ثم قدمني للرحالة وطلب منه أن يقول لي ما قاله له منذ قليل. فقال مستر ميرثويت:

- لم يكن هؤلاء الهنود الثلاثة من المشعوذين!

فكانت هذه مفاجأة جديدة! وسألته: "هل قابلهم من قبل"؟ فقال:

- لم أقابلهم إلا هنا، ولكني أعرف أسرار الشعوذة الهندية، وما رأيتموه الليلة تقليد رديء جدًا. وإذا لم يخطئ ظني فهم من طبقات البراهمة العليا. وقد واجهتهم بتهمة التنكر. وفي سلوكهم على كل حال لغز لا أجد له تفسيرًا، ذلك أنهم ضحوا بسمو طائفتهم تضحية مضاعفة، أولًا بعبور البحر، وثانيًا بالتنكر في صورة المشعوذين. وتلك في بلادهم تضحية كبرى فلا شك أن لديهم سببًا خطيرًا جدًا للإقدام عليها!

فأذهلني ما سمعت! وبعد لحظة قال المستر فرنكلن:

- لا أريد يا مستر ميرثويت أن أزعجك بقصة لا تهمك، ولا أرغب في إخراجها عن محيط أسرتنا. ولكن بعد الذي قلت أشعر بأنني يجب أن أقول لك شيئًا ربما يساعد على تعليل ما حدث الليلة!

ثم أخبر الرحالة بكل ما أخبرني به عند الرمال المرتعدة. وسأله عن رأيه بعد ذلك، فأجاب مستر ميرثويت:

- رأيي أنك نجوت من أخطار هددت حياتك يا مستر فرنكلن بليك، وهذه الأخطار أشد كثيرًا مما هدد حياتي في أسفاري المختلفة، وإنها لشيء كثير.

- هل الأمر حقيقة بهذه الدرجة من الخطر؟

- في رأيي أنه كذلك. ولا يمكنني أن أشك بعد الذي قصصته عليّ في أن استرداد جوهرة القمر وإعادتها إلى جبين الإله الهندي هو الباعث على تلك التضحية بالمنزلة الطائفية التي حدثتك عنها. وأحسب أن الوقت كان نهارًا وفي زحمة الناس عندما سحبت الجوهرة من المصرف في لندن؟

- أجل!

- وهل وصلت إلى بيت الليدي فيرندر في موعدك المقرر؟

- كلا! بل وصلت متقدمًا أربع ساعات!

- أهنئك بذلك. ومتى أودعتها في مصرف المنطقة؟

- بعد وصولي بساعة، وقبل موعد وصولي الأصلي بثلاث ساعات.

- أهنئك مرة أخرى! وهل أتيت بها إلى هنا وحدك اليوم؟

- كلا. بل عدت مع أبناء خالتي!

- أهنئك مرة ثالثة يا مستر بليك فأنت رجل محظوظ.

وعندئذ سألته أنا: "أتظن حقيقة يا سيدي أنهم كانوا يقتلون مستر فرنكلن ليستردوا ماستهم"؟

- "بل لو حالت بينهم وبين استردادها ألف روح لأزهقوها جميعًا"!

فقال له مستر فرنكلن: "إذن.. ما العمل وقد رأوا جوهرة القمر على ثوب الآنسة فريندر"؟

- العمل أن تنفذ ما هدد خالك به، فترسل الماسة غدًا لتجزئتها في أمستردام. ومتى أصبحت ست ماسات انتهى أمر جوهرة القمر وانتهت المؤامرة!

- ولنفرض أن الهنود عادوا الليلة؟

- لن يجازفوا بالعودة الليلة. وفي استطاعتكم أن تطلقوا عليهم كلابكم، فهي لا

تحجم، ولا تؤاخذ على إزهاق أي روح بشرية!

ثم تأبط ذراع مستر فرنكلن وعادا إلى حيث كانت السيدات. وكانت السماء قد بدأت تتلبد بالغيوم، فالتفت نحوي الرحالة وقال:

- سيحتاج الهنود الليلة إلى مظلاتهم يا مستر بتريدج!

ثم ذهبت إلى حجرتي الصغيرة، وجلست أفكر متحيرًا فيما أعمله بعد ذلك. وكنت قد أوشكت أن أنتهي من بيبتي الثانية عندما جاءتني بنيلوبي بتقريرها عن حجرة الاستقبال، فقد لاحظت أن مولاتي أكثرت الخطأ في لعبة الويست، وذلك أمر يحدث لأول مرة فيما نذكر. كما رأت الرحالة الكبير ينام في أحد الأركان، وسمعت مناقشة بين مستر فرنكلن ومستر جودفري. وافتقدت أخيرًا الطبيب كاندي الذي اختفى بصورة غامضة من حجرة الجلوس، ثم عاد بصورة غامضة كذلك وشرع في التحدث إلى المستر جودفري!

ولما أتمت بنيلوبي هذا التقرير تركتني، فقررت أن ألقي نظرة فيما حول البيت قبل أن يهطل المطر. فأخذت الكلاب معي وطفت بالحديقة. وعدت بعد أن تأكدت من عدم اختفاء أحد في أي مكان حول الدار!

وعند وصول العربات لتحمل المدعوين بدأ المطر ينهمر. وقد انصرفوا جميعًا إلى بيوتهم في عربات مغلقة، ما عدا الطبيب الذي كانت عربته الصغيرة المكشوفة في انتظاره!

وقد قلت للطبيب كاندي: "إنني أخشى عليك البلل يا سيدي".

فأجابني بأن جلود الأطباء من النوع الذي لا يتسرب منه الماء. ثم انطلق بعربته الصغيرة تحت المطر وهو يضحك من نكتته!

وبقى بعد ذلك أن أذكر قصة تلك الليلة!

اختفاء الماسة

بعد ان انطلقت آخر مركبات المدعوين، خرجت مولاتي والآنسة راشيل من قاعة الاستقبال يتبعهما الشابان. وقد جلس المستر فرنكلن وقد بدا عليه إعياء مميت. أما مولاتي فنظرت إلى الحلية في ثوب ابنتها وسألتها:

- أين ستحتفظين بالماسة هذه الليلة يا راشيل؟

فقالت الآنسة راشيل التي كانت منشرحة الصدر: "أحب أن أضعها في الخزانة الهندية بقاعة جلوسي الخاصة".

- "لكن هذه الخزانة الهندية لا قفل لها يا عزيزتي"!

فصاحت الآنسة راشيل:

- يا للسماء يا أماه! وهل نحن هنا في فندق؟ هل في البيت لصوص؟

- دعيني أحفظ الماسة لكِ هذه الليلة عندي؟

غير أن الآنسة راشيل لم تأبه لهذا القول، ورأت مولاتي أنه لا فائدة من مناقشتها تلك الليلة، فقالت لها وهي تستعد للانصراف:

- تعالي إلى حجرتي غدًا صباحًا يا راشيل، فسيكون عندي ما أقوله لك! وكانت الآنسة راشيل أول من ألقى تحية المساء بعد والدتها لتذهب إلى مخدعها. وكنت أنا واقفًا قرب المرآة الكبيرة فرأيت صورتها فيها وهي تلتفت نحو المستر فرنكلن وتمنحه ابتسامة مشرقة حملتني على الاعتقاد بصواب ما ذهبت إليه بنيلوبي. وما فارقتنا الآنسة راشيل حتى التفت مستر فرنكلن نحوي وقال لي: "لقد قلبت كلام مستر ميرثويت في رأسي مئة مرة، وأعتقد أننا أخذناه مأخذ الجد أكثر مما ينبغي". ثم سألني: "هل تعتزم حقيقة إطلاق الكلاب"؟

- سأحل وثاقها يا سيدي. وأتركها حرة تخرج إذا شمت ما يوجب خروجها!

- حسنا! ولكني لا أريد يا بتريدج أن أزعج خالتي بغير مبرر!

وكان يبدو متعبًا شاحب الوجه حتى إنني نصحت له بتناول قليل من البراندي قبل أن يأوي إلى فراشه. وسمعني مستر جودفري فنصح له كذلك بتنفيذ نصحيتي. ولكن المستر فرنكلن رفض البراندي الذي قدمته له، وصعد السلم مع المستر جودفري، لأن بابي حجرتيهما متجاوران. ثم ناداني من أعلى السلم طالبًا مني أن أبعث إلى حجرته بشيء من البراندي والماء لأنه ربما يحتاج إليه في الليل. فبعثت إليه بما طلب، ثم خرجت من البيت لأفك أطواق الكلاب، وطفت مع صمويل بالبيت وأحكمنا إقفال المنافذ كالعادة. فلما تم ذلك ذهبت مطمئنًا إلى فراشي بعد منتصف الليل بقليل!

وفي الساعة الثامنة صباحا أقبلت بنيلوبي إليّ مسرعة وهي تصرخ:

- اصعد بسرعة، لقد اختفت الماسة!

وجعلت تجرني خلفها إلى حجرة جلوس مولاتنا الصغيرة التي كانت تفضي إلى حجرة نومها. وقد وقفت الآنسة راشيل بالباب وبياض وجهها يحكي بياض ثوب نومها الناصع. أما مصراعا الخزانة الهندية فكانا مفتوحين على سعتهما، وقد جذب أحد الأدراج إلى أقصى مسافة ممكنة. وقالت بنيلوبي:

- انظر.. لقد رأيت الآنسة راشيل تضع الماسة في هذا الدرج في الليلة الماضية.

- هل هذا صحيح يا آنسة؟

فأجابتني الآنسة راشيل وعلى وجهها ذعر شديد لم أعهده فيها أبدًا:

- لقد اختفت الماسة!

ثم دخلت مخدعها وأغلقت الباب من الداخل بالمفتاح. وقبل أن ندري ما نصنع بعد ذلك، دخلت مولاتي، ويبدو أن أنباء فقدان الماسة قد أذهلتها، فاتجهت مباشرة إلى مخدع الآنسة راشيل وأصرت في إلحاح على الدخول!

وأتى المستر جودفري في أعقابها. وكل ما فعله عندما سمع بما حدث أن رفع يديه وأبدى الدهشة بنظراته. وهو تأثر لا يدل على ذكاء خارق. أما المستر فرنكلن فأبدى

من الحيرة والعجز مثلما أبداه ابن خالته حينما بلغه النبأ. ومن العجيب أنه نام نومًا عميقًا في تلك الليلة بعد أن أرق ليالي متتابعة. مما حدا به إلى القول بأن نعمة النوم على بعد عهده بها أورثته الغباء. فلما شرب قدحًا من القهوة انتعش ذهنه واسترد حيويته!

وبدأ بأن أمر الخدم أن يتركوا جميع الأبواب والنوافذ كما كانت في الليلة الماضية. ثم طلب منا أن نتأكد أن الماسة لم تسقط هنا أو هناك بعيدًا عن الأنظار. فلما لم نخرج من البحث بطائل أحب المستر فرنكلن أن يتحدث إلى الآنسة راشيل فكلف بنيلوبي أن تطرق بابها. فخرجت مولاتي إلينا بادية الاضطراب وقالت: "إن ضياع الماسة قد أزعج راشيل إزعاجًا شديدًا، وقد بلغ بها الأمر ألا تكلم أحدًا، حتى ولا أنا. فمن المستحيل أن تقابلها الآن. وفيما أظن يجب أن نبلغ الشرطة"!

فقال المستر فرنكلن: "أول ما ستفعله الشرطة هو البحث عن الهنود الذين كانوا هنا ليلة أمس. ولا يتسع المقام الآن للشرح. ولكن لا شك أن الهنود هم الذين سرقوا الماسة. فأعطيني يا خالتي خطابًا إلى الشرطة في فريزنجهول لأمضي به فورًا".

وأعتقد أن مولاتي كتبت الخطاب الذي طلبه منها في شيء من التردد. فلو كان من الممكن التغاضي عن فقد حلية تساوي عشرين ألف جنيه لسرها أن تتغاضى. وخرجت أنا مع المستر فرنكلن لأنني كنت راغبًا في سؤال كيف أمكن اللصوص أن يدخلوا البيت، وقد أجاب قائلًا:

- من الجائز أن أحدهم دخل إلى البهو في ساعة انصراف المدعوين، واختبأ هناك إلى أن سكنت حركة البيت!

وكان هذا الحل هو التفسير الوحيد الممكن فيما يبدو، ولكن كيف تسنى للص أن يهرب من البيت، مع أن الأبواب والنوافذ كلها كانت مغلقة كما تركتها ليلة أمس. ثم كيف استطاع الإفلات من الكلاب؟ والحق أنني كلما فكرت في هذا كله بدا لي تفسير المستر فرنكلن بعيدًا عن الصواب!

وبعد الإفطار بعثت مولاتي إليّ. وكان عليّ أن أخبرها بقصة الهنود ومؤامرتهم

وظهر لي أن قلقها على ابنتها كان أشد من توجسها من هؤلاء الأوغاد، وقالت لي:

- إني لم أرها مطلقًا بهذه الحالة الغريبة، ويظهر أن ضياع الجوهرة كاد يذهب بعقلها!

وكان ذلك غريبًا قطعًا، ولكن من الحق أن نقول إنها لم تكن الشخص الوحيد في البيت الذي انزعج وارتبك. فالمستر جودفري مثلًا لم يكن يدري ماذا يصنع، فلبث يضرب في أرجاء البيت والحديقة على غير هدًى. وفي غير استقرار. أما الخادمات - باستثناء روزانا سبيرمان التي لا تلوذ بأحد - فقد تجمعن في الأركان يتبادلن الهمس. وأعترف أنني كنت قلقًا متغير المزاج. فكأن هذه الماسة الملعونة قد أورثتنا جميعًا الشقاء!

وقبيل الساعة الحادية عشرة، عاد المستر فرنكلن، فقالت مولاتي له:

- "هل ستحضر الشرطة"؟

فقال: "نعم. سيحضرون الآن، ولكن لا أمل هناك! فالهنود المساكين أبرياء الساحة. وقد ثبت أنهم عادوا إلى المدينة مع الغلام ليلة أمس فيما بين العاشرة والحادية عشرة ومكثوا هناك منذ تلك الساعة. ولكن بما أنه من الجائز أن تكتشف الشرطة شيئًا بصددهم في المستقبل، فقد أودعوا الحبس أسبوعًا"!

وبعد عشر دقائق وصل المأمور سيجريف ومعه شرطيان. فبدأ بالدوران حول البيت من خارج، وبالطواف به من داخل. وكانت النتيجة أن ثبت لديه عدم دخول اللصوص من الخارج، وأن اللص لا بد أن يكون من داخل البيت!

وقرر المأمور بعد ذلك أن يفحص حجرة جلوس الآنسة راشيل، وأن يجتمع بالخدم. ووضع أحد الشرطيين على سلم الخدم، وأمره ألا يدع أحدًا يمر. فلما سمعت الخادمات ذلك اندفعن صاعدات (وروزانا سبيرمان بينهن هذه المرة). وطلبن من المأمور سيجريف أن يخبرهن فورًا أيهن التي يشتبه فيها فرشقهن المأمور بنظرة صارمة وصاح وهو يشير بيده إلى لطخة في طلاء باب الآنسة تحت القفل:

- لا أسمح لكن بالبقاء هنا! انظرن! انظرن ماذا صنعت ذيول بعضكن هيا انصرفن

الآن!

فانصرفت روزانا سبيرمان التي كانت أقربهن إلى تلك اللطخة على الفور إلى عملها، وحذت الأخريات حذوها. وبعد ذلك طلب المأمور أن يقابل الآنسة راشيل، فأخبرتها بنيلوبي بذلك من خلال الباب، غير أنها أجابت:

- ليس عندي ما أقوله للشرطي، ولا يمكن أن أقابل أحدًا!

فاستاء الضابط عندما سمع ذلك، فقلت له: "إنها مريضة، وحبذا لو انتظرت قليلًا عسى أن تراها فيما بعد".

ثم نزلنا، والتقينا بالمستر جودفري والمستر فرنكلن. وسألهما المأمور سيجريف إن كانا سمعا أي صوت أثناء الليل فأجابا سلبًا!

وبعد ذلك عدت مع المأمور إلى حجرة جلوس الآنسة راشيل لفحصها. وفيما نحن هناك انفتح باب مخدعها فجأة وخرجت وقالت لي:

- كان المستر فرنكلن بليك قد أبدى رغبته في التحدث إليّ هذا الصباح فأين هو الآن يا بتريدج؟

- إن المستر فرنكلن في الشرفة يا آنسة!

ولم تزد على ذلك كلمة. بل غادرت الحجرة قاصدة ابن خالتها في الشرفة. ولما نظرت من النافذة رأيتها تتجه إلى المستر فرنكلن وتتحدث إليه بطريقة تنم عن الغضب، فظهرت عليه دهشة عظيمة. وإذ هما يتساران دخلت مولاتي الشرفة، فلما لمحتها الآنسة راشيل عادت على الفور إلى البيت. وبعد لحظة دخلت مخدعها وقد بدا عليها هياج الغضب الشديد. ولما حاول المأمور أن يسألها صرخت:

- إني لم أرسل في طلبك! أنا لا حاجة لي بك! فلا أنت ولا أي إنسان آخر يمكن أن يعثر على ماستي!

وقد أذهلتني طريقة الآنسة راشيل العجيبة في الكلام إلى حد أعجز عن وصفه. ويخيل إليّ أنها استاءت لأننا استدعينا الشرطة. وأن دهشة المستر فرنكلن في

الشرفة كانت لأنها عبرت له عن ذلك الاستياء. فإذا صح ذلك فإني لست أدري لماذا وقد ضاعت ماستها تضيق بالناس الذين يريدون أن يعثروا لها عليها؟ ومن أين لها أن تعلم أن جوهرة القمر لن يعثر عليها أحد؟

ويظهر أن المستر فرنكلن رأى أنه ليس من مقتضيات الشرف أن يعيد على أسماع خادم حديث الآنسة راشيل إليه في الشرفة. وربما أخبر مولاتي والمستر جودفري. ولكنهما لم يخبراني بشيء!

ولما لم نعثر على شيء في حجرة الجلوس، سألني الضابط: "هل كان جميع الخدم يعلمون أين كانت الماسة في الليلة الماضية"؟

- كنت أنا أعلم، وكذلك صمويل وابنتي. وربما أخبرا الخدم الآخرين. أو يكون الخدم قد سمعوا بآذانهم من ثقوب مفاتيح الأبواب!

وسألني المأمور بعد ذلك عن أخلاق هؤلاء الخدم وطباعهم. فخطرت ببالي روزانا سبيرمان. ولكن لم يكن يليق بي ولا يروق لي أن أستثير ريبته في فتاة مسكينة كانت كاملة الأمانة منذ عرفتها. فكتمت أمرها.

وبعد ذلك تحدث الضابط (وكنت حاضرًا) إلى مولاتي. وبعد أن أخبرها بأن الماسة لا محالة قد أخذها شخص في البيت، استأذنها في تفتيش حجرات الخدم. فرفضت سيدتنا النبيلة أن تدعه يعاملنا معاملة اللصوص قائلة:

- لن أوافق على شيء كهذا بالنسبة لخدامي الأمناء!

وبوصفي رئيس الخدم شعرت بأنه من واجبي ألا نستغل أريحيتها فقلت:

- نحن شاكرون لسيادتك. ولكننا نريد الحق والصواب. فهذه كل مفاتيحي، وسيحذو جميع الخدم حذوي!

وصدق الخدم الآخرون وعدي فسلموا مفاتيحهم. ولكن لم يعثر للماسة على أثر، فانسحب المأمور سيجريف إلى حجرتي ليفكر في الخطوة التالية. ثم ذهبت لمقابلة المستر فرنكلن في المكتبة. وما كان أعظم دهشتي عندما وضعت يدي على الباب إذ

وجدته انفتح فجأة من الداخل وخرجت منه روزانا سبيرمان! ولما لم يكن للخادمة الثانية شأن بالمكتبة إطلاقًا في هذا الوقت من النهار، استوقفتها واستوضحتها، فقالت: "لقد سقط من المستر فرنكلن بليك بعض خواتمه في الطابق العلوي فذهبت إلى المكتبة لأسلمها إليه"!

وكان وجه الفتاة محمرًا وهي تكلمني وعلى وجهها مسحة اعتداد بالنفس لم أفهم لها كنهًا. وقد وجدت المستر فرنكلن مشغولًا بالكتابة فوق المائدة بالمكتبة، وطلب مني أن أعد عربة تحمله إلى محطة سكة الحديد، فقلت له:

- أذاهب إلى لندن يا سيدي؟

- بل سأرسل برقية إلى لندن. فنحن بحاجة إلى رجل أحذق من المأمور سيجريف كي يساعدنا على حل المعضلة. وسأكلف أبي برقيًا أن يعثر لنا على الرجل اللائق. ولهذه المناسبة أعتقد أنه إما أن روزانا سبيرمان مخبولة، وإما أنها تعلم عن جوهرة القمر أكثر مما ينبغي. فقد جاءت إلى هنا الآن بخاتم كان قد سقط مني. فشكرتها متوقعًا أن تنصرف، ولكنها وقفت تحملق في وجهي بصورة غريبة. وفجأة قالت لي: "انهم لن يعثروا على الماسة يا سيدي، أليس كذلك؟ ولا على الشخص الذي أخذها، وأنا الكفيلة بذلك". ثم أومأت لي برأسها باسمة. وعندئذ سمعت وقع أقدامك في الخارج فانصرفت!

ولم أخبره عندئذ بقصة الفتاة. إذ أن ذلك بمثابة اتهامها بأنها السارقة. بل قلت له:

- من الأوفق أن أخبر سيدتي بشأنها. فمولاتي شديدة الاهتمام بروزانا وربما كان كل ما في الأمر أنها على شيء من البلاهة!

وفي طريقي للأمر بإعداد المركبة، نظرت في بهو الخدم فلم أجد روزانا سبيرمان هناك. ولما سألت عنها علمت أنها شعرت بالمرض فلاذت بحجرتها الخاصة، فقلت: "إنها كانت على ما يرام عندما رأيتها أخيرًا". فتبعتني بنيلوبي إلى الخارج وقالت لي:

- لا تتكلم عنها بهذه اللهجة أمام الآخرين يا أبتاه. فالمسكينة يتنزى قلبها ألمًا في هوى المستر فرنكلن بليك!

وإن صح ما ذهبت إليه بنيلوبي، فإن تعليل تصرف روزانا العجيب قد يكون أنها لا يعنيها ما تقول ما دامت تحظى باجتذاب مستر فرنكلن لحديثها!

ولما درت مع العربة إلى الباب الأمامي وجدت المستر جودفري والمأمور سيجريف واقفين مع المستر فرنكلن في الانتظار، وقد خطر للمأمور خاطر جديد، وهو أن بعض من في المنزل كان يعمل لحساب الهنود. ولهذا قرر الذهاب إلى فريزنجهول لسؤال المشعوذين. فلما عرف المستر فرنكلن نيته قرر الذهاب معه، وأثار هذا اهتمام المستر جودفري فاستأذن أيضًا في الذهاب. وقبل الرحيل انتحى المستر فرنكلن بي بعيدًا وقال لي:

- سوف لا أبرق إلى لندن، إلى أن أرى ما يتكشف عنه التحقيق مع الهنود. فتنبه جيدًا يا بتريدج إلى أن أعود، وحاول أن تعرف دخيلة روزانا سبيرمان!

ولم تسنح لي فرصة للكلام مع روزانا، إذ لم تهبط إلا في وقت الشاي، ثم أصابتها ما تسمى بالنوبة الهستيرية فأعيدت إلى فراشها بأمر مولاتي. ورأت الآنسة راشيل نفسها مريضة فاعتذرت عن العشاء، فانزعجت مولاتي انزعاجًا شديدًا عليها، فلم أشأ أن أزيدها إزعاجًا بصدد روزانا سبيرمان.

وبعد موعد العشاء بنصف ساعة عاد السيدان من فريزنجهول. وكان مستر ميرثويت قد توجه إلى السجن معهما لمخاطبة الهنود بلسانهم. ولكن اتضح أنه لا أساس للظن بأن المشعوذين استخدموا أحدًا من خدمنا في سرقة الماسة. وبعد ذلك أرسل المستر فرنكلن برقيته إلى لندن. وهكذا ركد الأمر إلى اليوم التالي!

محقق من لندن

لم يحدث شيء في مساء الخميس. وفي صباح الجمعة بلغنا نبآن:

وكان النبأ الأول أن مساعد الخباز أبلغ أنه قابل روزانا سبيرمان بعد ظهر اليوم السابق وعلى وجهها قناع كثيف، سائرة صوب فريزنجهول. وبدا غريبًا ومستبعدًا أن يخطئ أحد في التعرف على روزانا إذ أن شكل كتفها يبرزها بسهولة، ولكن لا شك في أنه كان مخطئًا لأن روزانا كانت طيلة بعد ظهر أمس مريضة بحجرتها!

أما النبأ الثاني فهو أن ساعي البريد أخبرنا بأن الطبيب كاندي المسكين أصيب ببرد في ليلة عيد ميلاد الآنسة راشيل، وأنه مريض في الوقت الحاضر بحمى شديدة. وأسفنا جميعًا لذلك، وكان المستر فرنكلن أشدنا أسفًا، من أجل الآنسة راشيل، لأنه يعتقد أنها - ما لم يعثر على جوهرة القمر بسرعة - ستحتاج للطبيب!

وبعد الإفطار وصلت برقية من مستر بليك الوالد بأنه وجد الرجل المنشود لمساعدتنا واسمه الجاويش كاف، وأنه سيصل بقطار الصباح.

فقال المستر فرنكلن: "إن ذلك يفتح أمامنا باب الأمل في انتهاء متاعبنا عما قريب. لأنه ليس أجدر من الجاويش كاف بهذه المهمة".

وكان المستر جودفري بسبيل السفر ذلك اليوم. وكان شديد الأسف لفراقه خالته في مثل ذلك الظرف. واعتزم أن يستقل آخر قطار كي يتمكن من مقابلة الجاويش قبل رحيله. ولكن لا بد له من الوجود في لندن ليلة الجمعة لحضور اجتماع لجنة نسوية للبر في الصباح التالي!

ولما حان موعد وصول الجاويش، ذهبت إلى البوابة لأستقبله. واتضح أنه رجل متقدم في السن، شديد النحافة، يرتدي السواد من فرعه إلى قدمه حتى ليظنه من يراه قسيسًا أو لحادًا.. وفي طريقنا إلى البيت لم يتحدث بكلمة عن المسألة. بل بدا في الواقع أشد اهتمامًا بحديقة الورد. وقد أدهش البستاني وضايقني أن يثبت هذا الشرطي العظيم أنه أعلم الناس بمادة الأزهار. فقلت له:

- إن حب الورد يا سيدي يبدو ذوقًا غريبًا لرجل من أبناء مهنتك.

- لو دققت النظر فيما حولك لرأيت أن ذوق الإنسان كثيرًا ما يكون على النقيض من مهنته. آه! أرى سيدة قادمة. أهي الليدي فيرندر؟

وكان قد لمحها قبل أن ألمحها أنا والبستاني، فبدأت أعتقد أنه أفطن مما بدا لي في أول الأمر. وسأل الجاويش مولاتي إذا كان قد اهتم بمسألة السرقة أحد قبله. فلما أخبرته بالمأمور سيجريف رغب في مقابلته.

ولست أدري لماذا بدا المأمور سيجريف ضئيلًا جدًا عندما قدمناه إلى الجاويش كاف. وانفردا مدة طويلة في حجرة مغلقة. ولما خرجا إلينا طلب الجاويش أن يرى حجرة جلوس الآنسة راشيل فصعدت معه. ونظر الجاويش في الخزانة وفي أرجاء الحجرة، وهو يسأل أسئلة لم أفقه لها معنى. ثم لاحظ اللطخة الصغيرة تحت قفل الباب في الطلاء الذي قام بعمله مستر فرنكلن مع الآنسة فسأل:

- كيف حدث هذا؟

فبينت له أن الخادمات كن قد تجمعن في الحجرة فأحدث ثوب إحداهن هذه اللطخة وأمرهن المأمور سيجريف بالخروج قبل ان يحدثن أثرًا آخر. فسأل الجاويش المأمور هل لاحظ ثوب أي خادمة ترك هذه اللطخة فأجابه بالنفي، فحدجه الجاويش كاف بنظرة صارمة وقال:

- قبل أن نخطو خطوة أخرى، يجب أن نرى الثوب الذي ترك هذه اللطخة ويجب أن نعرف على وجه اليقين إلى أي ساعة كان هذا الطلاء طريًا. وسنتحقق من مسألة الطلاء أولًا. ففي أي وقت كانت الخادمات في هذه الحجرة أمس صباحًا؟ في الحادية عشرة؟ وهل يعرف أحد إن كان هذا الطلاء كان عندئذ طريًا؟

فقلت أنا: "إن المستر فرنكلن بليك هو الذي يعلم".

فاستدعى المستر فرنكلن وسأله هل يتذكر متى تم الطلاء في هذا الموضع الملطخ؟

- أذكر ذلك تمامًا. فهذه آخر قطعة من الباب طليناها. وقد أتممتها بيدي في الثالثة بعد الظهر. ويستغرق الطلاء اثنتي عشرة ساعة كي يجف.

فنظر الجاويش كاف إلى المأمور سيجريف هازئًا وقال:

- كانت الساعة الحادية عشرة صباحًا حين تحدثت إلى الخادمات هنا. أي أن الطلاء كان قد جف قبل ذلك بثماني ساعات عندما ظننت أن ثوب خادمة هو الذي لطخه. وأظن أن مستر فرنكلن بليك قد هديتنا لشيء. ووضعت بداية الخيط بين أيدينا.

وعندئذ انفتح باب المخدع وخرجت الآنسة راشيل بغتة وقالت مشيرة إلى المستر فرنكلن بيدها:

- هل قلت إنه "هو" قد وضع بداية الخيط بين أيديكم؟

- من المحتمل جدًا يا آنسة.

فتغير لونها إلى الحمرة، ثم عاد إلى الشحوب وبدت على سحنتها مخايل أفزعتني وهي تقول مخاطبة المحقق اللندني:

- أنصح لك بألا تسمح للمستر فرنكلن بليك بأن يساعدك.

وكانت الآنسة راشيل تتحدث بتحامل شديد، حتى خجلت منها لأول مرة في حياتي. وكان الجاويش كاف يرقب وجهها، فقال لها:

- شكرًا لك يا آنسة! هل تعرفين أي شيء عن اللطخة؟ لعلك تسببت فيها بنفسك على سبيل المصادفة؟

- لا أعرف عنها شيئًا!

ثم دارت على عقبيها وأغلقت على نفسها باب مخدعها من جديد، وسمعتها تنفجر باكية بمجرد اختلائها بنفسها هناك، فقال الجاويش:

- إن الآنسة فيرندر تبدو ضيقة الصدر بسبب ضياع ماستها. وذلك طبيعي!

وسرت في جسدي رعدة باردة لم أفهم معناها في حينها. ولكني أدرك الآن أنني ربما أكون قد ارتبت في تلك اللحظة في الفكر البشعة التي أوحت بها تصرفات الآنسة راشيل إلى الجاويش كاف. أما الجاويش فقال:

- الخطوة التالية هي اكتشاف آخر مرة شوهد فيها هذا الطلاء بغير هذه اللطخة! فمن الذي كان آخر من في الحجرة ليلة الأربعاء؟

- الآنسة راشيل فيما أعتقد يا سيدي!

وقال المستر فرنكلن: "إنها ربما كانت بنيلوبي". فقال الجاويش منتحيًا بي:

- يا مستر بتريدج، أرجو أن تطلب من ابنتك الحضور إلى هنا. تمهل، فإني أظن المأمور قد ضايق الخدم، فأرجو أن تخبرهن من جانبي بأنه لا دليل عندي على أن الماسة سرقت. فكل ما أعلمه أنها ضاعت. وكل ما هناك أنني أرجو أن يساعدوني على العثور عليها.

- وهل أخبرهم بشيء آخر يا سيدي؟ هل هم أحرار في الخروج والدخول إلى حجراتهم على هواهم؟

- كل الحرية!

وعندما أخبرتهم، وجدت صعوبة كبيرة في منع النساء كلهن من الصعود مع بنيلوبي، فقد كانت لهفتهن شديدة لمساعدة الجاويش كاف. وهاكم ما أدلت به ابنتي للجاويش حين استجوبها، أظنها أحسنت الأداء. فهي قد رأت الطلاء تحت قفل الباب بغير لطخة في آخر مرة حول منتصف الليل، عندما قالت لسيدتها الصغيرة طاب ليلك، وكانت حريصة ألا تمس الطلاء. غير أنها لا تستطيع أن تقسم أن ثوبها لم يمس ذلك الموضع وهي خارجة دون وعي منها. وقد تذكرت الثوب الذي كانت ترتديه وأحضرته. ولم يوجد به أثر للطلاء.

وبعد ذلك فحص الجاويش اللطخة بالمجهر فلم يجد بها أثر بصمات بل أجمعت القرائن على حدوث اللطخة من ثوب شخص بين منتصف الليل والثالثة صباحًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقد وجه الجاويش نظر المأمور وهو يشير إلى اللطخة قائلًا:

- لقد كبرت أهمية هذه اللطخة يا سيدي منذ رأيتها أنت. فقد أثارت الاهتمام بأشياء ثلاثة. أولها هل في هذا البيت ثوب ملوث بالطلاء؟ وثانيها ثوب من هو؟ وثالثها ما تعليل ذلك الشخص لوجوده في هذه الحجرة بين منتصف الليل والثالثة صباحًا؟ وإذا لم يستطع ذلك الشخص تبرير ذلك فأظننا نكون قد وضعنا اليد على سارق الماسة. وسأقوم على هذا العمل بنفسي إذا سمحت. ولهذا سوف لا أحتجزك بعد عن عملك في المدينة!

وغضب المأمور سيجريف غضبًا شديدًا وقال:

- إني لم أدلِ برأيي حتى الآن. ولكني أريد أن أقول كلمة واحدة، وهي أن هناك يا جاويش ما يسمى بالتهويل في أهمية ما لا أهمية له. طاب صباحك!

وبعد أن انصرف المأمور، ذهب الجاويش إلى النافذة ووقف هناك يصفر أغنية "وردة الصيف الأخيرة" بصوت خافت. وقد اكتشفت بعد ذلك أنه يصفر دائمًا هذه النغمة عندما يكون مشغول الذهن جدًا، ثم طلب مقابلة مولاتي في أسرع وقت!

ولما سألته: "هل كونت فكرة عمن سرق الماسة"؟ قال لي:

- لم يسرق الماسة أحد. فانتظر قليلًا، لأن أجزاء المعضلة لم تستقر بعد في وضعها الصحيح!

وقد تضايقت مولاتي عندما قلت لها: "إن الجاويش كاف يريد محادثتها".

وقالت لي:

- لدي إحساس بأنه جلب إلى هذا البيت المتاعب. فإن كان لا بد من مقابلته فسأفعل، ولكن امكث هنا يا جبريل ما مكث هو معي!

ولما حضر الجاويش، أخبر سيدتي عن اللطخة، وعن رأيه في كيفية حدوثها، وأننا يجب أن نكتشف قطعة الثياب التي مست الطلاء قبل اتخاذ أي خطوة أخرى. فسألته سيدتي: "هل يعني اكتشاف الثوب اكتشاف اللص"؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- "لم أقل إن الماسة سرقت يا صاحبة السيادة. وإنما قلت فقط إنها مفقودة. واكتشاف الثوب الملوث قد يساعدنا على العثور عليها"!

فنظرت مولاتي إليّ وسألتني: "هل فهمت شيئًا"؟

فقلت: "إن الجاويش كاف يفهم لا شك معنى ما قال يا مولاتي"!

فسألته سيدتي: "كيف تريد أن تعثر على الثوب الملطخ؟ لقد فتشت حجرات خدمي من قبل. ولا أستطيع أن أسمح بإهانتهم على هذا الوجه ثانية"!

- إن عندي خطة ربما أقرتها سيدتي، فإذا قلت للخدم إنني سأفتش جميع الملابس ابتداء من سيادتك إلى آخر شخص ممن قضوا ليلة الأربعاء في البيت، فأظنهم سيقبلون عن طيب خاطر!

وبعد أن مرت لحظة الدهشة الأولى، تبينت مولاتي صواب هذا الرأي فقالت:

- ستتولى مخاطبة خدمي، ومفتاح خزانة ملابسي في يدك!

- أليس من الأفضل أن نتأكد أولًا أن ابنتك وبنتيّ أختك موافقات؟

وفي هذه اللحظة طرق الباب المستر جودفري مستأذنًا، وتبعه في الدخول المستر فرنكلن الذي كان سيرافقه إلى المحطة، فلما سمع المستر جودفري بالموضوع أعطى الجاويش مفاتيح حقائبه قائلًا: "إن حقائبي يمكن أن ترسل إليّ في لندن بعد الانتهاء من التفتيش".

أما المستر فرنكلن فقال وهو يمضي في إثر ابن خالته: "إن جميع ملابسي معرضة للفحص، وأنا لا أغلق خزانتي على شيء بالمفتاح".

ثم قال الجاويش: "قبل أن نبدأ الفحص يا صاحبة السيادة أرجو أن أطلع على دفتر الغسيل. فقد تكون قطعة الثياب الملطخة من الملابس الداخلية. فإذا وجدنا قطعة ناقصة فربما كانت هي الملطخة ويكون صاحبها قد أعدمها!

وأحضرت روزانا سبيرمان دفتر الغسيل، ولاحظت أن الجاويش حدق النظر فيها، ثم تصفح الدفتر وسأل مولاتي:

- "هل الشابة التي أحضرت هذا الدفتر تخدمك منذ زمن كسائر الخادمات؟

- لماذا تسأل هذا السؤال؟

- لأنني حين رأيتها آخر مرة كانت في السجن بتهمة السرقة!

وكان علينا بعد ذلك أن نخبره بالحقيقة، وتكلمنا طبقًا بحماسة عن حسن سلوك روزانا منذ جاءت إلينا. ثم نهضت مولاتي وصعدت لتحضر مفاتيح الآنسة راشيل. وانتظرنا طويلًا. ثم جاءني صمويل بقصاصة من الورق فيها ثلاثة سطور بخط مولاتي تقول فيها: "إن الآنسة راشيل رفضت أن تفحص ثيابها". فلما أخبرت الجاويش بذلك لم يقل سوى "آه" ولكن في لهجة من سمع ما كان يتوقعه من قبل، فقلت له:

- لا يبدو عليك الكثير من خيبة الأمل.

- كلا. لم يخب أملي كثيرًا!

وربما رأى من هو أذكى مني لكلامه هذا مغزى. وكذلك ربما فطن إلى قصده شخص أقل مني تعلقًا بالآنسة راشيل. أما أنا فلم أفهم مراده. فسألته:

- ما الذي سنصنعه بعد ذلك؟

- تعالَ معي إلى الحديقة لنلقي على ورودها نظرة!

وذهبنا إلى الحديقة. وتوطئة لما سيحدث فيما بعد ينبغي أن أذكر أن الممشى الذي سرنا فيه كان هو الممشى المفضل لدى المستر فرنكلن. وقال لي الجاويش:

- أريد أن أسألك سؤالًا أو سؤالين يا مستر بتريدج. هل لاحظت شيئًا غير مألوف على أحد من الخدم بعد ضياع الماسة؟ مثلًا: مشاجرة فيما بينهم، أو ضيق صدر أحدهم، أو مرضه مرضًا بغير مقدمات مثلًا؟

فخطر لي على الفور مرض روزانا سبيرمان المفاجئ. ولكن قبل أن ينفسح لي الوقت للإجابة رأيت الجاويش ينظر نحو الأشجار ويقول لنفسه برفق: "مرحى".

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وسألته عما وجد، فأجاب بصوت عالٍ كمن يريد أن يسمعنا شخص ثالث:

- عرض من أعراض الروماتزم في ظهري!

ثم خرجنا من نهاية الممشى إلى جزء مكشوف من الحديقة يمكن أن نبصر فيه ما حولنا من كل جانب، وعندئذ وقف واستدار نحوي وسألني:

- لمصلحة روزانا سبيرمان نفسها سأسألك الآن: هل تعشق أحدًا؟

فلما حملقت فيه بدلًا من أن أجيب، قال الجاويش:

- لقد رأيت روزانا تختبئ بين الأشجار ونحن في الممشى. فإن كان لها حبيب فليس الأمر ذا بال. فإن لم يكن، فهذه ظاهرة مريبة!

وماذا كنت أستطيع أن أقول له؟ إني أعلم أن هذا الممشى هو المفضل عند المستر فرنكلن. وأنه من الراجح أن يسلكه وهو عائد من المحطة، ولئن صح تخمين ابنتي فلعل روزانا كامنة في انتظاره. وإشفاقًا على الفتاة أخبرت الجاويش بأن روزانا بلغ بها الخبال أن تعشق المستر فرنكلن فقال الجاويش كاف:

- إنه ليسرني أن تتضح هذه النقطة.. هل لاحظت شيئًا غير مألوف على أحد من الخدم بعد فقدان الماسة؟

ولاحظت أنه دس هذا السؤال بخبث، فأخذت حذري وأجبت بالنفي، فنظر في وجهي نظرة فاحصة ثم قال لي:

- يا مستر بتريدج هل لك في مصافحتي إذا سمحت؟ فقد ملت إليك كثيرًا.

وعدنا إلى البيت. لأن الجاويش رغب في التحدث إلى جميع خدم الدار واحدًا واحدًا. فأخذته إلى حجرتي وأرسلت الخدم إليه. ولاحظت أنه استبقى وصيفة مولاتي الخاصة وقتًا طويلًا، وقالت عند خروجها:

- إن لم يكن الجاويش يصدق امرأة محترمة، فعل الأقل لا ينبغي أن يصرح بهذا!

أما الخادمة الأولى فبقيت زمنًا طويلا، ولما خرجت صرحت بقولها:

- إني لم آتِ هنا يا مستر بتريدج لأتعرض لمواجهتي بالريبة من ضابط منحط!

وتلتها روزانا سبيرمان فبقيت مدة أطول منهن، ولم تقل شيئًا إلا أن شفتيها كانتا شاحبتين بلون الرماد، ولما انتهى الاستجواب دخلت عليه وسألته: هل من جديد؟ قال لي:

- إذا رغبت روزانا سبيرمان في الخروج، فلا مانع عندي من أن تأذن لها، على ان تخبرني بذلك أولًا.

وبعد دقائق معدودات، جاءتني رسالة من الطباخة بأن روزانا استأذنت في الخروج لصداع شديد أصابها ورغبتها في أن تستنشق الهواء الطلق. وبإشارة من الجاويش أذنت لها. وبعد ذلك طلب مني أن أريه باب خروج الخدم ففعلت.

Telegram:@mbooks90

ولما وجدت نفسي بمفردي عولت على أن أكتشف بعض الحقائق من تلقاء نفسي. وكان واضحًا أن الجاويش يرتاب في روزانا بناء على شيء تبين له وهو يستجوب الخدم. ولما كان قد استبقى وصيفة مولاتي وخادمة الدار الأولى مدة طويلة أيضًا، فقد سعيت لمقابلتهما. وبعد أقل من نصف ساعة عرفت كل ما يعلمه الجاويش نفسه. فهاتان المرأتان لم تعتقدا على ما يظهر في صدق مرض روزانا في اليوم السابق. لهذا عالجتا بابها بعد الظهر فوجدتاه مغلقًا بالمفتاح وتسمعتا فلم تسمعا صوتًا. ولما نزلت الفتاة للشاي وأعيدت إلى فراشها ثانية عالجتا الباب مرة أخرى فوجدتاه مغلقًا، ثم أبصرتا نورًا تحت الباب في منتصف الليل وسمعتا نشيش نار في حجرتها في الساعة الرابعة صباحًا. وقد أخبرتا الجاويش بذلك كله. ويظهر أنه ظن بهما الكذب. ولما كنت قد عرفت طرقًا من طرق كاف العظيم، فقد خيل إليّ أنه تصنع عدم تصديقهما، حتى إذا وصل كلامهما إلى روزانا لم تأخذ حذرها!

وبعد فترة، التقيت بالمستر فرنكلن في الحديقة. وكان قد سمع برفض الآنسة راشيل أن تفتش ثيابها، فساءه ذلك جدًا. وسرنا معًا صامتين بضع دقائق. ثم سألني عن مكان الجاويش فأخبرته بما حدث، وبما قالته المرأتان عن روزانا سبيرمان. وعندئذ سألني:

- ألم تخبرني أن بعض المتعهدين قابلها أمس في الطريق إلى فريزنجهول؟ فإذا كانت هاتان المرأتان صادقتين في كلامهما، فالمتعهد رآها فعلًا، وتكون الفتاة قد تصنعت المرض. ولا بد أن هناك علة إجرامية لذهابها إلى المدينة. وأما النار فقد أوقدتها في حجرتها لتعدم الثوب الملطخ بالطلاء. وعلى هذا فهي التي سرقت الماسة. وسأذهب على الفور وأخبر بذلك خالتي!

وإذا بصوتٍ من ورائنا عرفنا عندما التفتنا نحوه أنه صوت الجاويش كاف يقول:

- ليس الآن من فضلك يا سيدي!

- ولم لا؟

- لأن الليدي ستخبر الآنسة فيرندر بذلك!

فقال مستر فرنكلن وقد بدا عليه الغضب فجأة: "وماذا لو أخبرتها"؟

- أتظن من الحكمة يا سيدي أن تسألني هذا السؤال في مثل هذا الوقت؟

وساد الصمت لحظة، والاثنان يتبادلان النظرات الثاقبة الصريحة، ثم قال فرنكلن:

- هل أفهم من هذا أنك تحرم عليّ اطلاع خالتي على هذا النبأ؟

- بل تفهم يا سيدي أنني أنفض يدي من القضية، إن أخبرت أي أحد بما حدث!

فتحتم على المستر فرنكلن أن يذعن ودار على عقبيه في حنق وغادرنا. واتضح لي أمران: أولهما أن مولاتي الصغيرة هي السبب بوجه من الوجوه فيما شجر بينهما من خلاف. وثانيهما أن كلًا منهما يفهم الآخر بغير حاجة إلى الإفصاح من الجانبين. وأخيرًا قال لي الجاويش:

- يا مستر بتريدج. هل هناك ممر يفضي إلى الشاطئ من هذا البيت؟

ولما أجبته بنعم طلب مني أن أقوده إلى هذا الممر، وسرنا معًا جنبًا إلى جنب في ذلك المساء من أمسيات الصيف، متجهين نحو الرمال المرتعدة!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سر الصندوق

قال لي الجاويش "كاف" في طريقنا إلى تلك الرمال المرتعدة:

- أريد أن أحدثك بوضوح مثالي. فأنت مصمم على ألا تقول شيئًا عن روزانا سبيرمان لأنك تعطف عليها. فاعلم إذن أنها ليست مهددة بأقل خطر في هذه القضية. وإنما هي أداة استخدمها شخص آخر، ومن أجل ذلك الشخص الآخر لن تمس بسوء!

- ألا يمكن أن تسمي لي هذا الشخص الآخر؟

Telegram:@mbooks90

- ألا تستطيع أن تسميه يا مستر بتريدج؟ ألم يتفق لك أن تعلم إن كانت روزانا قد اشترت طقمًا جديدًا من الملابس الداخلية؟

ولما لم أجد في قول الصدق ما يمكن أن يضر روزانا، أخبرته بأن مولاتي أعطتها منذ أسبوعين طقمًا جديدًا.

فقال الجاويش عندئذ:

- لولا هذا الطقم لوجدنا قميص نوم جديدًا بين ملابس روزانا. فبعد ظهر أمس عندما تظاهرت بالمرض توجهت إلى المدينة لتشتري خامات تصنع منها قميص نوم، وأشعلت النار في حجرتها ليلة الخميس لا لتعدم الثوب الملطخ بالطلاء، فإن رائحة الحريق كانت حرية أن تنتشر، بل لتكوي الثوب الجديد. وفي هذه الدقيقة تحاول روزانا أن تتخلص من الثوب الملطخ في هذه البقعة المقفرة من الشاطئ التي أمامنا. وقد تبعتها هذا المساء إلى كوخ في قرية الصيادين، حيث مكثت برهة، وعندما خرجت كانت تخفي تحت ردائها شيئًا. ولم أتمكن من تتبعها إلى الشاطئ حتى لا تراني، ولهذا عدت إلى البيت لأطلب منك أن تأخذني إلى هناك من طريق آخر. وإذا استمر نور النهار مدة كافية فسيخبرنا الرمل ماذا كانت تفعل!

ورأيت الجاويش يجفل حين لمح ارتعاد الرمال، وهي الشيء الوحيد المتحرك في هذا المكان الفظيع، ثم قال:

- يا له من مكان مهول يا مستر بتريدج! إنه لا أثر لروزانا على الشاطئ هنا، فأرجو

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أن نسرع، لأنني أريد أن أحدد المكان الذي غادرت فيه الشاطئ قبل الظلام!

وسرنا نحو متني خطوة صوب القرية، ثم وقف الجاويش فجأة وقال:

- هذه آثار أقدامها! أثر ذاهب وآخر راجع. ويبدو أنها مشت في الماء لتمنعنا من تتبع أثرها إلى المكان الذي وقفت فيه. ولو أنها كانت قد أعدمت ما أخفته تحت ردائها لما اهتمت بإخفاء الموضع الذي انتهى فيه سيرها. ولهذا أظن أنها لم تعدم الشيء وإنما أخفته. وأعتقد أننا إن ذهبنا إلى الكوخ فقد نكشف حقيقة ذلك الشيء.

ومن وصف الجاويش عرفت أن الكوخ لصياد اسمه بولاند، له زوجة، وابن وابنة يافعان. والبنت فتاة عرجاء تعرف في المنطقة باسم لوسي العرجاء، وهي صديقة لروزانا فاعتقدت أن روزانا لم تذهب هناك إلا جريًا على عادتها وسيقيم ذلك الدليل للجاويش على أنها لم ترتكب ما يؤخذ عليها هذا اليوم!

ولما وصلنا إلى الكوخ وجدنا السيدة بولاند وحدها في المطبخ. ولا أستطيع أن أخبرك كيف استطاع الجاويش كاف في مدى ربع ساعة أن يقنع السيدة بولاند بأنها تتحدث مع أعز أصدقاء روزانا. ومع أنها وثقت به وكانت مستعدة للكلام، لم يكتشف شيئًا ضد روزانا فنهض أخيرًا للانصراف قائلًا:

- طاب ليلك يا سيدتي. لقد أردت أن أقول وأنا راحل إنني كمخلص لروزانا سبيرمان أنصح لها بمغادرة عملها الحالي، فإنها لن تتقدم فيه!

فصاحت مسز بولاند: "لكنها ستتركه فعلًا"!

فجلس الجاويش كاف على الفور وقال:

- هي إذن تنوي أن ترحل؟ وماذا ستصنع؟ فليس للمسكينة أصدقاء إلا أنت وأنا؟

- بل لها أصدقاء. فقد حضرت هنا هذا المساء وطلبت أن تصعد وحدها إلى حجرة لوسي قائلة إنها تريد أن تكتب خطابًا إلى صديق، وهي لا تستطيع ذلك في بيت عملها لأن الخادمات يتجسسن عليها. فلها إذن صديق في مكان ما. وإلى هذا الصديق ستذهب ولا شك!

فقلت لها: "أنت مخطئة ولا ريب، لأنها لو اعتزمت الرحيل لأخبرتني أولًا".

فقالت: "لكنها منذ ساعة واحدة اشترت أشياء تحتاج إليها للسفر"!

وقامت فأحضرت صندوقًا عتيقًا من الصفيح له غطاء، من ذلك النوع الذي يستخدم في السفن لحفظ الخرائط والأوراق من الرطوبة وقالت:

- لقد اشترت روزانا صندوقًا كهذا صباح اليوم وقالت: "إنه يكفيني لأضع فيه ياقاتي وأساور أكمامي".

وخرجت السيدة بولاند، ثم عادت وفي يدها سلسلة كلب وقالت:

- كان عندنا ثلاثة سلاسل من هذه، فأخذت منها روزانا اثنتين لتحزم الصندوق!

وبعد ذلك الاكتشاف غادرنا الكوخ. وفي اختراقنا للقرية قال لي الجاويش:

- سيسرك أن تعلم يا مستر بتريدج أن السيدة بولاند بدلًا من أن تساعدني قد حيرتني. ولا جدال أن روزانا ربطت الصندوق بالسلسلتين. ثم أغرقت الصندوق في الماء أو الرمل المتحرك المغرق. ثم ثبتت طرف السلسلة بمكان تحت الصخور تعرفه دون سواها. ولكن اللغز هو: ماذا تخفي في الصندوق؟ إنه ليس الماسة. فأنا واثق أن روزانا سبيرمان لم تحصل على الماسة!

- هو إذن الثوب الملوث؟

فسألني: "هل ما يقذف إلى هذا الرمل المغرق يعود إلى وجه الدنيا"؟

ولما أجبت بالنفي قال لي: "إذن لماذا لم تربط الثوب الملوث بحجر وتلقي به في الرمل المغرق؟ لا داعي مطلقًا لإخفائه. ومع ذلك لا بد أنها أخفته. والمسألة هي هل الثوب الملطخ قميص نوم أو قميص نهار؟ أو هو شيء آخر يجب حفظه بأي ثمن"؟!

ولما عدنا سأل الجاويش على الفور: "هل عادت روزانا". واتضح أنها عادت منذ ساعة تقريبًا، وأنها الآن تتعشى بهدوء مع الأخريات. ودار الجاويش حول البيت من الخلف فأخطأ المدخل برغم ندائي له، فذهبت لآتي به، ووجدته عند بوابة الحديقة ينظر باهتمام نحو نافذة من نوافذ حجرة النوم. ولاحظت أن الضوء يمر جيئة وذهابًا

مما يدل على حدوث شيء غير مألوف. فسألني الجاويش: "أليست هذه حجرة نوم الآنسة فيرندر"؟ ولما أجبته بأنها هي بعينها، راح يصفر لحن وردة الصيف الأخيرة بانسجام، ثم التفت نحوي وقال لي:

- إني مستعد للمراهنة بجنيه يا مستر بتريدج على أن مولاتك الصغيرة قررت فجأة مغادرة البيت. كما أني مستعد للمراهنة بجنيه آخر على أنها قررت ذلك في مدى نصف الساعة الأخيرا!

فأسرعت إلى البيت لأرى ماذا يحدث، والتقيت بصمويل في الممر، فقال لنا:

- إن الليدي في انتظار أن تراك أنت والجاويش كاف!

وسمعت صوت الجاويش كاف يسأل من وراء ظهري:

- كم لبثت في انتظارنا؟

- مدى الساعة الأخيرة يا سيدي!

وعندما هممنا بأن نطرق باب مولاتي، همس الجاويش في أذني قائلًا:

- لن يدهشني أن تنفجر الليلة في هذا البيت فضيحة يا مستر بتريدج!

ووجدت مولاتي جالسة إلى مكتبها، وكانت وهي تحدثنا حريصة على أن تظل عيناها مثبتتين في كتاب مفتوح. وبدأت بقولها:

- ينبغي أن أخبرك أيها الضابط بأن الآنسة فيرندر تعتزم السفر للإقامة مع خالتها السيدة إيبلوايت في فريزنجهول. وسوف ترحل في أول فرصة من صباح الغدا!

- ومتى أخبرتك الآنسة فيرندر بعزمها على السفر إلى خالتها؟

- منذ نحو ساعة!

- لا أستطيع أن أمنع الآنسة راشيل من الذهاب يا سيدتي. وكل ما أطلبه أن تحاولي إقناعها بعدم السفر إلى ما بعد الظهر. لأنني يجب أن أذهب إلى فيرزنجهول صباح غد. وسأعود في الساعة الثانية. فإذا أمكن إبقاء الآنسة فيرندر حتى ذلك الوقت،

استطعت أن أقول كلمتين قبل رحيلها. وأرجو ألا تذكري لها أنني كنت السبب في تأجيل موعد رحلتها!

ووافقت مولاتي على ذلك، ثم صرفتنا بإشارة من يدها. وفيما نحن في البهو قال الجاويش: "يا لها من امرأة رائعة. فلولا قدرتها على ضبط النفس لانتهت هذه القضية الليلة". وعندئذ انبثقت الحقيقة أخيرًا في رأسي العجوز البليد وصحت:

- إن حول الآنسة راشيل شيء غير سليم!

فقلت: "هأنت ذا خمنت أخيرًا؟ إن الآنسة راشيل سرقت ماستها، فهي التي كانت لديها الجوهرة طيلة الوقت. وقد أخبرت روزانا سبيرمان لأنها تعلم أننا سنشك في الفتاة. وإذا رفضت الآنسة فيرندر أن تؤجل زيارتها لخالتها (وهذا ما ستفعله) فسوف أطرح القضية كلها أمام سيدتك غدًا".

وذهبت أنا إلى الحديقة لأخلو إلى نفسي قليلًا، إذ شعرت بشيء من القلق والشقاء. على أنني برغم كل ما حدث ما زلت أؤمن إيمانًا جازمًا بالآنسة راشيل وقطع علي حبل أفكاري صمويل حاملا إلي رسالة مكتوبة من سيدتي. وفيما أنا متوجه إلى البيت حيث الضوء لأقرأ الرسالة، لاحظ صمويل أن الجو يتغير. ولم أكن لاحظت ذلك، ولكنه كان على صواب. فإن الجو العاصف كان وشيك الوقوع. وكانت رسالة مولاتي تخبرني بأن الشرطة كتبت إليها بخصوص الهنود الثلاثة، وأن الإفراج عنهم لا بد أن يتم في أوائل الأسبوع القادم فإذا كان لدينا أسئلة نوجهها إليهم فيجب أن نفعل ذلك الآن. وهذا ما طلبت مولاتي مني أن أخبر به الجاويش. فلما أخبرته سأل عن عنوان مستر ميرثويت وقال إنه سيزوره في الصباح. وعندئذ قلت له:

- إن المأمور سيجريف كان واثقًا من براءة الهنود!

- إنه أخطأ في كل شيء آخر. وربما كان مخطئًا في شأن الهنود أيضًا!

ولما غادرته قابلت بنيلوبي في البهو، فأخبرتني بأن الآنسة راشيل تعللت بالذهاب إلى خالتها لأنها لا تطيق الإقامة بالبيت وفيه شرطة. وعندما وصلت إلى الباب اللولبي المفضي إلى البهو من جناح الخدم إذا بالباب يفتح بعنف وإذا روزانا

سبيرمان تجري مارة بي وعلى وجهها نظرة التعاسة، وقد وضعت إحدى يديها فوق قلبها. فاستوقفتها وسألتها عما بها، فقالت:

- ناشدتك الله لا تكلمني!

فناديت الطباخة لتعنى بالفتاة. فسمع ندائي شخصان آخران: أولهما الجاويش كاف الذي أسرع راكضًا يسألني ما الخبر، فقلت له: لا شيء. والآخر هو مستر فرنكلن الذي جاء ليسألني: هل رأيت روزانا؟ فقلت له:

- لقد مرت بي تؤًا يا سيدي في حالة غريبة جدًا!

- أخشى أن أكون أنا السبب يا بتريدج! وإن كنت لست أفهم ماذا تعني؟ ولكن إن كانت تعرف شيئًا عن ضياع الماسة. فاعتقادي أنها همت بأن تخبرني به منذ دقيقتين!

وفيما هو يقول ذلك، خيل إليّ أن الباب الهزاز انفرج قليلا من الداخل، فاخترقته ورأيت ما خيل إليّ أنه سترة الجاويش كاف تتوارى حول ركن الممر. ولما كنت لا أريد إثارة المتاعب، قلت للمستر فرنكلن: إن الحركة صدرت عن أحد كلابنا. واستطرد فرنكلن:

- كنت ألعب البلياردو عندما اتفق أن رفعت رأسي فجأة فوجدت روزانا سبيرمان واقفة بجواري، فسألتها: هل ترغب في التحدث إليّ؟ فأجابتني: "نعم. لو وجدت الشجاعة" لم أدرِ ماذا أصنع وأخشى أنني تصرفت بغباء فقلت لها: "أهناك شيء تريدينني أن أصنعه"؟ ولبثت أضرب الكرات هنا وهناك لأنني شعرت بعدم الارتياح. فدارت على عقبها فجأة وسمعتها تقول: "إنه يفضل النظر إلى كرات البلياردو أو أي شيء على النظر إليّ". فهل لك في أن تخبرها يا بتريدج أنني لم أقصد الفظاظة؟ وإن كانت تريد التحدث إليّ فأرسلها إليّ في المكتبة.

ولما سألت عن روزانا قيل لي: إنها ذهبت إلى حجرتها الخاصة. فطفت بالبيت لأغلق الأبواب. ولما وصلت إلى الطابق الثاني خيل إليّ أنني سمعت صوت تنفس منتظم في الممر المفضي إلى حجرة الآنسة راشيل. فنظرت فإذا بشخص نائم فوق

ثلاثة كراسي تعترض الممر، وهذا الشخص هو الجاويش كاف! وقد استيقظ لحظة اقترابي منه فسألته:

- ما الذي تصنعه هنا؟ لماذا لم ترقد في فراشك الخاص؟

- لأنه وضح لي أن الآنسة فيرندر قد صممت على مغادرة البيت هذه الليلة بعد أن علمت بأن الشيء الذي ذهبت روزانا لإخفائه - أيًا كان ذلك الشيء - قد أخفي فعلًا، ولا شك أن الاثنتين قد تحدثتا حديثًا خاصًا على انفراد، وقد بقيت هنا لكي أحول دون اجتماعهما مرة أخرى!

فانفجرت قائلًا: "تمنيت على الله لو أن الماسة لم تدخل هذه الدار أصلا"!

فنظر الجاويش إلى الكراسي الثلاثة التي كتب عليه أن يقضي فوقها الليلة، ثم قال بوقار: "وكذلك أنا.."!

لم يحدث في تلك الليلة حادث. ويسعدني أن أضيف إلى هذا أن الآنسة راشيل وروزانا لم تحاولا التقابل!

وفي الصباح التالي كنت أتمشى مع المستر فرنكلن في الحديقة، فأقبل علينا الجاويش كاف، وقال للمستر فرنكلن:

- أريد أن أذكرك يا سيدي بأنني من حفظة القانون، وإنني أعمل هنا بناء على طلب الليدي. ولهذا فمن واجبك أن تخبرني بكل شيء تعلم أنه يساعدني!

- أنا لا أعرف شيئًا!

- إن إحدى الخادمات تحدثت إليك على انفراد في الليلة الماضية.

- لا علم لي بشيء من هذا!

وتذكرت حركة الباب الدوار، ولم يبقَ عندي شك في أن الجاويش سمع طرفًا من الكلام جعله يتوهم أن روزانا أخبرت مستر فرنكلن بشيء. وفي هذه اللحظة، ظهرت روزانا نفسها في نهاية الممشى، وفي أعقابها بنيلوبي التي يبدو أنها كانت تحاول إيقافها. وتصنع الجاويش أنه لم يفطن إليهما فقال للمستر فرنكلن بصوت مرتفع:

"إني أنصح لك بأن تخبرني بكل ما تعرف إن كنت مهتمًا بشأن روزانا سبيرمان".

وتصنع المستر فرنكلن كذلك أنه لم يرَ الفتاتين وأجاب بصوت مرتفع:

- لا اهتمام لي على الإطلاق بشأن روزانا سبيرمان!

ورأيت روزانا تدور على عقبيها فجأة، ثم تترك ابنتي تمضي بها بعيدًا. وعندئذ تركنا الجاويش كاف كي يذهب إلى فريزنجهول قائلًا: "سأعود في الساعة الثانية". فلما انفردت بالمستر فرنكلن قال لي:

- يجب أن تصحح موقفي لدى روزانا، فإني أردت أن أمنعها من قول أي شيء في مواجهة الجاويش. ولم أجد في ذهني طريقة غير التي اتبعتها. ولا أستطيع أن أساعد الجاويش على فضح أمرها!

ولما تركني مستر فرنكلن ليتمشى مسافة طويلة كما قال، دخلت البيت فوجدت بنيلوبي تنتظرني. وقالت لي:

- أرجو يا أبي أن تأتي لتكلم روزانا. إني قلقة عليها جدًا. وأخشى أن المستر فرنكلن قد جرح شعورها بقسوة!

وذهبت معها فوجدنا روزانا شاحبة هادئة تكنس الممر. ولكن كان في عينيها ذهول، شأن الحالم، فقلت لها:

- استبشري يا روزانا! فإن عندي لك رسالة من المستر فرنكلن!

ولما أبلغتها رسالة المستر فرنكلن كان كل ما قالته وهي كالحالمة:

- إن المستر فرنكلن جد عطوف. فأرجو أن تشكره عني!

- يا بنيتي.. إن في نفسك أمرًا يثقل عليك. وأنا صديقك أيًا كان الأمر الذي أقدمت على فعله. فصارحيني به.

- سأخبر به المستر فرنكلن!

ولما لم أدرِ بماذا أرد على هذا الكلام، اكتفيت بأن أقول لها: "إن المستر فرنكلن

ذهب للنزهة". فقالت: "لست أريد إزعاجه بالمسألة هذا اليوم"! ولمّا لم أجد محلًا أو فائدة للمناقشة معها، لم يبقَ لديّ ما أقوله.

وفكرت في أن أبلغ الأمر إلى مولاتي. ولكني وجدتها مختلية بالآنسة راشيل. فكان من المستحيل أن أقابلها!

وقبل الساعة الثانية بربع ساعة، عاد الجاويش كاف من فريزنجهول، وقال لي:

- لقد قابلت الهنود. وعرفت ما الذي اشترته روزانا من المدينة يوم الخميس الماضي. وسيطلق سراح الهنود في الأسبوع القادم. وليس من شك في أنهم حضروا إلى هنا لسرقة جوهرة القمر. ولكن الفرصة لم تسنح لهم، ومع هذا فالمؤكد أننا إذا لم نعثر على جوهرة القمر فسوف يعثرون هم عليها. أما روزانا سبيرمان فلم تشترِ إلا قطعة قماش تكفي لصنع قميص نوم!

- قميص نوم لمن؟

- لنفسها طبعًا. ففيما بين الثانية عشرة والثالثة من يوم الخميس توجهت إلى حجرة الآنسة فيرندر لتدبر أمر إخفاء الماسة. ولا شك أن قميص نومها مس طلاء الباب عندئذ. والذي أثبت لي أن قميص النوم الملطخ قميصها لا قميص الآنسة فيرندر، أنها لم تشترِ مخرمات (دنتلا) وهي ما كان لا غنى عنه لو أن القميص كان قميص مولاتها الشابة الصغيرة. والخطوة التالية هي اكتشاف المخبأ، في الرمال المرتعدة!

ولم يخبرني بما انتوى أن يفعل في ذلك. ولكني اكتشفت فيما بعد أنه حصل من المدينة على إذن بالتفتيش. وكان يعتقد أن روزانا لا بد قد كتبت مذكرة بموضع المخبأ. وهو يأمل أن يجد هذه المذكرة في حجرتها.

ووصلت في هذا الوقت إلى الباب العربة التي كانت ستقل الآنسة راشيل إلى فريزنجهول. وقال الجاويش لصمويل الذي كان واقفًا على الدرجة الخلفية للعربة:

- إن صديقًا من أصدقائي واقف عند البوابة. وسيقفز إلى جوارك فوق العربة الخلفية من غير أن يوقف العربة. وإذا كنت لا تريد إثارة المتاعب، فالزم الهدوء.

وأدركت أن في النية وضع جاسوس على الآنسة راشيل وهي في عربة والدتها الخاصة!

وبعد دقيقة أو دقيقتين خرجت مولاتي تتبعها الآنسة راشيل. وقبلت سيدتنا الصغيرة والدتها وأسرعت بدخول العربة. وخف الجاويش إلى جوارها فقال:

- أريد أن أقول لك كلمة يا آنسة. ليس في مقدوري أن أوقف سفرك. ولكني أريد أن تقدري أنك إن سافرت ستجعلين من العسير عليّ العثور على الماسة. ولهذا أرجو أن تختاري بنفسك ما ترينه صوابًا!

ومن غير أن ترد عليه، صاحت الآنسة راشيل بالحوذي أن ينطلق. وفي هذه اللحظة طلع علينا المستر فرنكلن وهو يركض صائحًا وهو يمد يده:

- إلى اللقاء يا راشيل!

فصاحت الآنسة بصوت أشد ارتفاعًا تخاطب الحوذي:

- انطلق!

فتراجع مستر فرنكلن إلى الوراء، ونظر إليّ بعينين يترقرق فيهما الدمع وقال:

- اصنع بي معروفا يا بتريدج وأوصلني إلى القطار بأسرع ما يمكن!

ولمّا دخلت مولاتي ومستر فرنكلن ووقف الجاويش كاف دقيقة ويداه في جيبه يصفر لحن "وردة الصيف الأخيرة" ثم قال لي:

- إن مع سيدتك الصغيرة رفيقًا في عربة والدتها يا بتريدج، هو جوهرة القمر!

وسأل الجاويش بعد ذلك عن روزانا سبيرمان. وكان قد ترك شرطيًا ليراقبها وهو في المدينة. فجاءنا الشرطي في تلك اللحظة بنبأ خروجها، فصرفه الجاويش بحنق، وجمع الخدم ليعرف أيهم آخر من رأى روزانا. فاتضح أنها نانسي خادمة المطبخ، وقد رأتها تعطي صبي الجزار خطابًا ليضعه لها في صندوق بريد فريزنجهول. وقررت أنها تعلم أن الخطاب موجه إلى قرية الصيادين واسمها كوبزهول. ذلك أن الصبي

علق قائلًا: "إنها دورة كبيرة للخطاب أن يلقى في بريد فريزنجهول كي يصل إلى كوبزهول القريبة جدًا من هنا".

فقالت له روزانا إنها ليست متعجلة وصوله. فأخذ منها الخطاب. ولم يز أحد روزانا بعد ذلك!

فلما صرنا وحدنا قال الجاويش:

- يجب أن أذهب إلى فريزنجهول فورًا. فالمذكرة التي بها موضع المخبأ في هذا الخطاب. ويجب أن أعلم إلى من هو مرسل.

ولكن عندما وصلنا إلى فناء الإسطبلات، اتضح لنا شيء جديد عن روزانا، فقد قابلنا هناك صبيًا صغيرًا اسمه "دفي" قرر أنه رآها تجري نحو الشاطئ منذ نصف ساعة. فقال له الجاويش:

- إن كنت تريد أن تكسب شلنًا فتعال معي!

ثم أنشأ يتجه صوب الرمال المرتعدة بسرعة لم أستطع مجاراتها. وبعد قليل عاد إليّ "دفي" برسالة منه كتب فيها: "أرسل إليّ حذاء من أحذية روزانا فورًا". فبعثت إليه مع الغلام بأنني سآتي بالحذاء بأسرع ما أستطيع بمجرد العثور عليه. ثم أسرعت. ولما اقتربت من الشاطئ وجدت المطر قد بدأ يتساقط والسحب متراكمة قاتمة. وعلى الشاطئ بجوار البحر الثائر وجدت الجاويش كاف. فانتزع الحذاء من يدي بسرعة ووضعه فوق علامة على الرمال متجهة صوب صخرة البصقة الجنوبية.

وتتبعنا آثار الأقدام إلى الموضع الذي تتلاقى فيه الصخور بالرمال، فلم نجد أثرًا لأي قدم راجعة من جهة الصخور. قال الجاويش:

- لقد عادت إلى موضع المخبأ. ولكن حادثًا قاضيًا وقع لها!

وفكرت في كلمات الفتاة وأفعالها الغريبة وحاولت أن أقول: "إن الميتة التي ماتتها يا جاويش ميتة نشدتها لنفسها"!

على أني لم أستطع أن أتفوه بكلمة. وأبعدني الجاويش برفق عن الموضع الذي

ماتت فيه. ثم أبصرت قادمين نحونا عدوًا، خدمنا من الرجال ومعهم الصياد بولاند. فأخبرهم الجاويش بما حدث. ثم سأل بولاند:

- هل كان من الممكن لزورق أن يأخذها من فوق هذه الصخور؟

- لم يوجد إلى الآن الزورق الذي يصل إليها في مثل هذا الطقس!

- وهل كان يوجد هنا منذ ساعة ماء يكفي لإغراقها؟

- أما والمد على ما هو عليه اليوم فمن المستحيل أن تغرق!

- إذن لا بد أن الحادث وقع لها في الرمال المرتعدة.

وعندئذ قلت أنا: "لم يكن حادثًا فقد جاءت إلى هذا المكان وهي تنوي الموت". فتجمعوا حولي كلهم. غير أن الجاويش ردهم عني قائلًا: "إنه رجل شيخ، والمفاجأة أذهلته".

فقال له بولاند الصياد: "كلا يا جاويش! إن المستر بتريدج على حق. فهناك حاجز من الصخور في هذا الموضع تحت الرمال المغرقة مباشرة. فلو أنها سقطت هنا لاستطاعت أن تخرج بسهولة. فلا بد أنها مشت في هذا الرمل إلى نهاية الحاجز ثم ألقت بنفسها هناك"!

وبعد ذلك درنا على أعقابنا، وشرعنا في طريق العودة، وفي الطريق قابلنا غلامًا قادمًا من البيت ومعه قصاصة من الورق وجدتها بنيلوبي في حجرة روزانا. وكانت تحمل تحيتها الأخيرة في وداع ذلك الرجل العجوز الذي فعل خير ما في وسعه - والحمد لله على ذلك - كي يفوز بصداقتها:

"لقد غفرت لي يا مستر بتريدج فيما مضى، فاجتهد كلما رأيت الرمال المرتعدة بعد ذلك أن تغفر لي. فقد عشت ومت يا سيدي ممتنة لعطفك عليّ"!

ولم يكن هناك أكثر من ذلك. غير أنه كان كافيًا كي أنفجر باكيًا!

واقترب الجاويش كاف مني خطوة، فقلت له:

- لا تلمسني! إنك أنت الذي دفعتها إلى هذا المصير!

فأجابني بهدوء قائلًا: "أنت مخطئ يا بتريدج! ولكن سننتظر إلى أن ندخل البيت ثم نتحدث في هذا الموضوع"!

نشر من سبقونا الخبر. فلما مررنا بباب مولاتي انفتح بعنف وخرجت منه سيدتي فوقفت بيننا وقد استولى عليها الهول فصاحت مهددة الجاويش بيدها:

- هذه جريرتك أنت. فأعطِ يا جبريل هذا الرجل نقوده وليخرج من هنا!

- إنها ليست جريرتي أكثر مما هي جريرتك يا سيدتي! وإذا كنت بعد نصف ساعة مصرة على رحيلي عن الدار فسأرحل. ولكني لن أقبل أي مبلغ من المال!

وكان يتحدث بهدوء عظيم، ولكن بحزم عظيم أيضًا كان له أثره في مولاتي، فأدخلتنا حجرتها. وبعد أن جلسنا اعتذرت للجاويش عن الطريقة التي خاطبته بها. ويبدو أن لباقتها في الاعتذار تركت أثرها فيه فأخبرها في أدب بأنه من المستحيل أن يكون مسئولًا عما حدث بما أنه كان شديد الحرص على ألا يقول أو يعمل أي شيء يمكن أن يروع روزانا سبيرمان. واستشهد بي فأيدته. واستطرد قائلًا:

- لقد سمعت بسبب آخر يتناقلونه عن قتل الفتاة لنفسها، وهو سبب لا علاقة له بالقضية. ولكني أعتقد أن انزعاجًا شديدًا لا يحتمل بصدد الماسة هو الذي ساقها إلى ذلك. وإن كنت لا أعلم فحوى ذلك الانزعاج إلا أنني قد أجد من يعلمه.

- تكلم بصراحة من فضلك. أتعني بذلك الشخص ابنتي؟

- أجل!

- قبل أن نوغل في الموضوع يجب أن أخبرك بأنه من المستحيل أن تكون ابنتي قد فعلت ذلك. إنك أنت لم تعرفها إلا يومًا أو نحو ذلك. أما معرفتي بطبعها فترجع إلى مبدأ حياتها. وأنا واثقة بأنك مخطئ في هذا الظن!

فبدا على الجاويش الأسف لسيدتي. ولكن كان واضحًا أنه ما زال يعتقد أن الآنسة راشيل مذنبة. ثم قال:

- لقد سلخت العشرين سنة الأخيرة في أعمال من هذا القبيل. وقد تبين لي أن الشابات كثيرًا ما تكون لهن ميول خاصة لا يجسرن على الاعتراف بها للأقارب والأصدقاء. فتذكري هذا يا سيدتي وأنا أفضي إليك بما اكتشفته منذ جئت إلى هنا. إن أول ما تبينته كان عن طريق المأمور سيجريف، إذ أخبرني بأن الآنسة رفضت أن يستجوبها وخاطبته بخشونة. ثم اكتشفت أنا لطخة الباب. ومن أقوال المستر فرنكلن بليك استنتجت أن لها صلة بضياع الماسة. فماذا حدث عندئذ؟ خرجت الآنسة فيرندر فجأة من حجرتها وكلمتني. وقد لاحظت ثلاثة أشياء مريبة جدًا: فقد كانت أولًا شديدة الانزعاج مع أن الماسة فقدت منذ أكثر من أربع وعشرين ساعة. وعاملتني على النحو الذي عاملت به المأمور سيجريف من قبل. وبدا عليها الغضب الشديد من المستر فرنكلن. ومعنى هذا أنها كانت مستاءة نافرة من الأشخاص الثلاثة الذين كانوا يجهدون أنفسهم في مساعدتها على العثور على الماسة. فشككت في أنها أخذت الماسة لنفسها لتدفع ديونها الخاصة. وأصبح من الواجب بعد ذلك أن أختبر قيمة هذا الظن. فاقترحت فحص خزانات الملابس في البيت كله. فوافق الجميع على ذلك ما عدا الآنسة فيرندر! وقد سمعتني اليوم أخبرها بأن رحيلها عن البيت سيجعل من العسير عليّ جدًا أن أسترد الجوهرة. وقد رأيت بنفسك أنها أهانت المستر بليك على درجات سلم بيت والدتها. فماذا تعني كل هذه الأشياء إذا لم يكن معناها أن لديها الماسة؟

ولما لم يجبه أحد عن هذا السؤال، استطرد قائلًا:

- المسألة التي يجب توضيحها بعد ذلك تتعلق بروزانا سبيرمان، فبعد رفض كريمتك تفتيش ثيابها كان عليّ أن أرى إن كان أحد من الخدم يساعدها في خطتها. وأنت تذكرين أنني عرفت روزانا سبيرمان عندما جاءتني بدفتر الغسيل. فظننت على الفور أنها الفتاة التي لا بد أن الآنسة فيرندر قد اختارتها. فلو أن ابنتك أرادت أن تحملنا على الاعتقاد بأن الماسة سرقت ولم تضع، لكانت روزانا سبيرمان بسابقتها في اللصوصية خير وسيلة لتضليلنا. ثم من الذي سيساعد الآنسة فيرندر في الحصول على المال برهن الماسة؟ إنها روزانا سبيرمان أيضًا. فهي فيما أعلم يقينًا على علاقات ودية في لندن مع بعض من يقرضون مبلغًا ضخما على جوهرة مشهورة

مثل جوهرة القمر من غير تدقيق في السؤال!

ومضى الجاويش فأخبر سيدتي بكل ما اكتشفه من مراقبة روزانا. فلما فعل ذلك لم تدرِ سيدتي نفسها ماذا تقول، فقال لها:

- بقى عليّ أن أخبر سيادتك الآن بما أنوي أن أفعله. فأمامي طريقان للانتهاء من هذه القضية. وستقررين أنت أيهما أسلك: الطريق الأول هو مراقبة الآنسة فيرندر مراقبة دقيقة. وأن نعين بعد إذنك في مكان روزانا امرأة مدربة على العمل في مثل هذه القضية. وأخيرًا أرسل أحد زملائي ليقوم بعمل تسوية ودية مع المرابي في لندن الذي لا أشك أن الآنسة فيرندر عرفت اسمه وعنوانه من روزانا. وبهذه الوسيلة نستطيع العثور على جوهرة القمر في حوزة الآنسة فيرندر إذا قررت الاحتفاظ بها. وإذا قررت التخلص منها استطاع رجلنا ان يتلقفها عند وصولها إلى لندن.

- - أرفض المواقفة على هذا. فهاتِ طريقك الآخر!

- طريقي الآخر ليس مضمونًا. وفحواه أن نسبب للآنسة صدمة كبيرة على أمل أن تدفعها عواطفها إلى الإفضاء لنا بكل شيء. وبعبارة أخرى أريد أن أخبرها بغير مقدمات أو إنذار بوفاة روزانا. فهل توافقين سيادتك على هذه الخطة؟

وأدهشتني بقولها على الفور إنها موافقة، فقال الجاويش:

- إن العربة جاهزة. وأستودعك الله!

فاستوقفته مولاتي قائلة: "أحب أن أخبرها بنفسي، فامكث أنت هنا وسأذهب أنا إلى فريزنجهول".

فرأيت لأول مرة في حياتي الجاويش كاف وقد أخرسته الدهشة!

ثم قالت له وهي في البهو:

- يمكنك أن تثق في شيئين: أنني أستطيع أن أقوم بهذه العملية في مثل جسارتك. وأنني سأخبرك بالنتيجة قبل قيام آخر قطار في هذه الليلة إلى لندن.

وصعدت إلى العربة على الفور، وانطلقت إلى فريزنجهول. وعندئذ التفت الجاويش

كاف إليها وقال:

- أظن يا بتريدج أن الليدي فريندر من أبرع نساء إنجلترا!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

النبوءات الثلاث

عادت العربة قبل الموعد المرتقب بنصف ساعة على الأقل، وكانت مولاتي قد قررت البقاء في بيت شقيقتها. وسلمني السائس خطابين منها: أحدهما للمستر فرنكلن، والآخر لي. فأرسلت خطاب المستر فرنكلن إليه. وتوجهت إلى حجرتي لقراءة خطابي. وسقط منه وأنا أفتحه صك علمت منه أن الجاويش كاف قد أبعد عن نظر القضية. فتوجهت إلى الجاويش وقرأت له الخطاب، وقد جاء فيه ما يأتي:

"يا جبريل أرجو منك أن تخبر الجاويش كاف بأنني بررت بوعدي له. والنتيجة أن الآنسة فيرندر تقسم إنها لم تتحدث بكلمة واحدة في السر إلى روزانا منذ دخلت المسكينة بيتي. ولم تتقابلا مطلقًا ليلة ضياع الماسة، ولا في أي وقت بعد ذلك. وبعدها أخبرت ابنتي بشكوك الجاويش فأجابت بأنها غير مدينة بمال لأي مخلوق. وأن الماسة ليست الآن ولم تكن أبدًا في حوزتها منذ وضعتها في خوانها ليلة الأربعاء. وهذا كل ما صرحت به لي. ولكنها رفضت الإجابة عندما سألتها هل تستطيع أن تعلل اختفاء الماسة. وكل ما قالته: "ستعرفين يومًا ما لماذا لست أبالي بالريب، ولماذا ألوذ بالكتمان حتى عنك". وأريد منك أن تقرأ هذا الخطاب للجاويش ثم تعطيه الصك المرفق. وإني أصرح بأنني أعتقد صدق أمانته وذكائه. ولكن الظروف في هذه القضية خانته".

فقال الجاويش: "لقد كانت الليدي بارعة جدًا. ولكن هذه الفضيحة العائلية من النوع الذي يثور ثانية على غير انتظار. وسنسمع بعد انقضاء شهور كثيرة المزيد عن جوهرة القمر"!

وذكرت له أنه يهين بذلك مولاتي وكريمتها، فقال لي:

- كلا يا مستر بتريدج. وإنما أنا أحذرك. والآن سأخبرك بثلاثة أشياء ستحدث مستقبلًا: الأمر الأول أنك ستسمع أخبارًا من الصياد بولاند وآله عندما يسلم ساعي البريد خطاب روزانا في قرية كوبزهول يوم الاثنين. والأمر الثاني أنك ستسمع عن الهنود مرة أخرى. ستسمع عنهم في هذه المنطقة إذا ظلت الآنسة راشيل هنا، أو في

لندن إذا ذهبت إلى لندن. والأمر الثالث والأخير أنك ستسمع شيئًا عن ذلك المرابي اللندني الذي أشرت إليه من قبل، وسأكتب لك الآن اسمه وعنوانه حتى لا يكون هناك لبس في المسألة:

ثم كتب "المستر سبتيمس لوكربميدل سكس، لامبث، لندن". وقال لي:

- هذه هي آخر كلمة عن جوهرة القمر في الوقت الحاضر. وسيثبت الزمن إن كنت مخطئًا أو مصيبًا. أما أنا يا سيدي فسأحمل معي ميلًا شديدًا نحوك. وإذا لم نتقابل قبل أن أعتزل العمل فآمل أن تأتي لتزورني في بيتي الذي وضعت عليه عيني بالقرب من لندن. وأعدك يا مستر بتريدج بأن تكون في حديقتي ورود كثيرة جدًا!

ثم شد على يدي وغادرني.

ومهما يكن من شيء، فإني أعترف بأنني لم أتمالك نفسي من الميل إليه، مع أنني كرهته في الوقت نفسه!

وغادرنا مستر فرنكلن في الليلة نفسها بالقطار، مع أنني نصحت له بأن ينتظر يومًا أو يومين ليتيح للآنسة راشيل فرصة أخرى. فلم يجبني إلا بوضع خطاب مولاتي في يدي. وكان الجانب الأكبر منه يكرر ما ورد في خطابي. ولكن كان هناك جزء في ختامه يفسر تصميم المستر فرنكلن على الرحيل. فقد كتبت تقول:

"قد يدهشك سماحي لابنتي بكتمان سرها عني في صدد جوهرة القمر. ولكنها في حالة عصبية لا أجسر معها على الإشارة إلى الماسة ثانية، إلى أن يفعل الزمن فعله في تهدئتها. وللاستعانة على بلوغ هذه الغاية سرحت الشرطي، وفي نيتي أن آخذ راشيل إلى لندن أملًا في التغير الكامل وطلبًا للفحص الطبي فهل لك في مقابلتنا في لندن؟ وأوصيك يا عزيزي فرنكلن بالصبر. فراشيل لم تغفر لك أنك ساعدت الجاويش في هذا التحقيق. ويؤسفني أن أقول إنه من الخير في الوقت الحاضر ألا تلتقيا"!

ولما أعدت الخطاب إلى المستر فرنكلن قال لي:

- عندما جئت من لندن بتلك الماسة الفظيعة، لم أكن أعتقد أن في إنجلترا بيتًا أسعد من هذا. فانظر الآن إليه! لقد نفذت جوهرة القمر انتقام الكولونيل على وجه لم

يحلم به الكولونيل قط!

ثم شد على يدي وخرج ليركب العربة. وفي اليوم التالي (الأحد) جاءتني رسالة من مولاتي تقول إنها والآنسة راشيل ذاهبتان إلى دارها في لندن يوم الاثنين. وعلى معظم الخدم أن يلحقوا بها هناك. أما أنا فأبقى في الريف لرعاية كل الشئون في الداخل والخارج (في البيت والضيعة).

ولما هبط المساء وشعرت بالقلق على المستر فرنكلن، كتبت إلى خادم والده المسمى مستر جيفكو أطلب إليه أن يخبرني بما انتوى مستر فرنكلن أن يصنع في لندن. وفي يوم الاثنين حدثت لي صدمة. إذ تحققت أولى نبوءات الجاويش كاف. ألا وهي سماعي شيئًا من جهة آل بولاند. فقد ودعت الخدم المسافرين إلى لندن وكنت أتمشى في الحديقة عندما أهلت ابنة الصياد لوسي العرجاء فقلت لها: "حسنًا يا عزيزتي. ماذا تريدين"؟

- أين هو الرجل المسمى فرنكلن بليك؟

وكنت قد اكتشفت أن خير طريقة تتبعها إذا حاولت امرأة أن تحرج صدرك هي أن تحرج أنت صدرها. وكفت كلمة واحدة لإغاظة لوسي العرجاء، إذ حدقت في وجهها باشمئزاز فصرخت قائلة:

- إنه لقاتل. إنه لقاتل! وفاة روزانا كانت على يده!

- لقد كانت تحسن الظن بي دائمًا تلك المسكينة. وكنت أترفق بها دائما فهدأت هذه الإجابة من ثائرة لوسي العرجاء وقالت لي برفق:

- كنت أحبها. فقد عاشت حياة شقية. لأن أهل السوء أساءوا إليها ودفعوها إلى الضلال. ولكن ذلك لم يفسد رقتها. ثم جاء ذلك الرجل ووقعت في هواه. ولا تقل لي إنه لم يكن يدري فقد كان يجب أن يدري وأن يرحمها. وكم قلت لها: إنه ما من رجل يستحق أن تشقى من أجله هكذا. وهذا الصباح جاءني خطابها يخبرني بانتحارها!

- وماذا تريدين من المستر فرنكلن بليك؟

- معي خطاب له من روزانا أرسلته مع خطابي!

- لقد ذهب المستر فرنكلن إلى لندن ليلة أمس، فأعطنيه لأرسله له.

- إن كان يريد الخطاب فليعد إلى هنا ليأخذه من يدي!

ثم انطلقت تطلع متجهة نحو كوبزهول!

وفي يوم الثلاثاء جاءني خطابان: أحدهما من بنيلوبي تخبرني بوصول الآنسة راشيل ومولاتي بالسلامة إلى لندن. والآخر من المستر جيفكو يخبرني بأن مستر فرنكلن بليك قد غادر إنجلترا!

- أما يوم السبت آخر أيام الأسبوع فهو أيضًا آخر يوم في قصتي. إذ جاءتني صحيفة لندنيه وعليها عنواني بخط الجاويش كاف، ووجدت علامة بالحبر حول خبر من أخبار البوليس أنقله فيما يلي:

"لامبث. قبل ختام الجلسة بوقت قصير تقدم المستر سبتيمس لوكر تاجر الجواهر القديمة المعروف، وأعلن أنه عانى أثناء النهار من مضايقات هنود ثلاثة حضروا إلى بيته. وبعد أن طردهم الشرطي عادوا وحاولوا دخول البيت متعللين بطلب الصدقة. وقد صرح المستر لوكر بأنه يخشى أن تكون نيتهم سرقة جواهره الثمينة جدًا. وأنه قد طرد صانعًا هنديًا من خدمته لارتيابه في محاولته السرقة، وهو يظن أن ذلك الرجل ربما كان متواطئًا مع هؤلاء الهنود".

إذن في أقل من أسبوع واحد تحققت نبوءات الجاويش كاف الثلاث.

والآن أترك الحديث للآنسة كلاك، من أعضاء الأسرة، وهي التي أشرت في وصفي لحفلة العشاء إلى جلوسها بجانب المستر جودفري. وأرجو ألا تصدق كلمة مما تقول، إذا تحدثت بسوء عن خادمك المتواضع!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

القسم الثاني

اكتشاف الحقيقة

(١٨٤٨ - ١٨٤٩)

وقائع وردت في روايات مختلفة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الرواية الأولى

أوردتها الآنسة كلاك، بنت شقيقة السير جون فيرندر

خلف الستار

كتبت الآنسة كلاك، بنت شقيقة المرحوم السير جون فيرندر ما يلي نقلًا عن يومياتها:

انقطعت عني جميع أخبار أنسبائي فترة طويلة من الزمن، وما أكثر ما يغفل الناس أمر الفقراء منهم. وأنا أقيم الآن - طلبًا لرخص المعيشة - في مدينة صغيرة بمقاطعة بريتان الفرنسية. وقد تلقيت أخيرًا رسالة من إنجلترا، فعلمت أنني خطرت فجأة على بال المستر فرنكلن بليك قريبي الثري لأنه يريد مني شيئًا.

لقد تملكته الرغبة في تحريك قضية جوهرة القمر المزعجة. ويريد أن أعينه على ذلك بكتابة تقرير عمَّا رأيته بنفسي أثناء زيارتي لمنزل زوجة خالي في لندن. وقد عرض عليَّ مالًا بما عرف في الأثرياء من نقص في الشعور بالحرج. وإني لأشك كثيرًا في استطاعتي كسب هذا المال بالحلال لولا مذكراتي اليومية التي كنت أسجلها يومًا يومًا عقب حدوثها.

وتنبئني يومياتي بأنني في يوم الاثنين الثالث من شهر يوليو سنة ١٨٤٨ كنت مارة بالصدفة بمنزل زوجة خالي في ميدان مونتاجو، فرأيت مصاريع النوافذ مفتوحة، فشعرت بأنه من حسن الأدب أن أطرق الباب للاستفسار فأخبرتني الخادمة التي فتحت لي الباب أن زوجة خالي وابنتها - ولا أستطيع أن أدعوها بنت خالي - قد وصلتا من الريف منذ أسبوع. للإقامة بلندن بعض الوقت. فأرسلت على الفور رقعة أسأل هل يمكن أن أقوم بأي خدمة. فحملت الخادمة رقعتي وتركتني واقفة في البهو. وأعني بتلك الخادمة بنيلوبي كريمة الخادم العجوز الزنديق المسمى بتريدج الذي طال مكثه أكثر مما يجب عند أسرة زوجة خالي. وجلست في البهو أنتظر الرد. ولمَّا كنت أحتفظ دائمًا ببضعة كتيبات في حقيبة يدي، تخيرت واحدًا منها يليق موضوعه بالشخصية التي فتحت لي الباب. فالكتاب جزء من سلسلة موجهة إلى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الشابات عن مضار ارتداء الثياب!

وعادت إليّ الخادمة تقول: "مولاتي تشكرك وترجو منك الحضور للغداء غدًا في الساعة الثانية". فتغاضيت عن طريقتها في أداء هذه الرسالة وقلت لها:

- هل تتفضلين بقبول هذا الكتيب مرضاة لخاطري؟

فنظرت إلى العنوان قم قالت وهي ترد إليّ الكتاب وتفتح الباب:

- هل المؤلف رجل أم امرأة يا آنسة؟ إن كان لامرأة فلا أحب أن أقرأه. وإن كان كاتبه رجلًا، فيسرني أن أخبره بأنه لا يفقه شيئًا عن هذا الموضوع!

فانتظرت إلى أن أغلقت عليّ الباب ورميت الكتيب في صندوق البريد.

وكان لدينا اجتماع في ذلك المساء للجنة الصفوة المختارة في جمعية ملابس الأم. وكنت في ذلك الوقت عضوًا في اللجنة. وقد أشرت إلى هذه الجمعية هنا لأن صديقي العزيز المستر جودفري إيبلوايت كان من المشتركين في أعمالنا. وكنت أتوقع أن أراه في حجرة الاجتماع في مساء ذلك اليوم. وكم كانت خيبة أملي شديدة لأنه لم يحضر. ولما أعربت عن دهشتي لغيابه سألتني الأخوات عضوات اللجنة إن كنت لم أسمع النبأ بعد. فأجبت بأنني لم أسمع شيئًا. وعندئذ سمعت لأول مرة خبر ذلك الحادث الذي أعتبره نقطة البداية لهذا التقرير.

في يوم الجمعة السابق، كان سيدان مختلفان في المكانة الاجتماعية كل الاختلاف قد وقفا فريسة لهجوم أفزع مدينة لندن كلها. وأحد هذين السيدين هو المستر سبتيموس لوكر من لامبث. والآخر هو مستر جودفري إيبلوايت وكان تاريخ ذلك الحادث هو ٣٠ يونيه سنة ١٨٤٨. ففي ساعة مبكرة من ذلك اليوم كان صديقنا الموهوب المستر جودفري يقبض صكًا في مصرف بشارع لمبارد. فلما وصل إلى الباب إذا به يلتقي برجل غريب عنه كان يغادر المصرف معه. وأصر الغريب على أن يتقدمه المستر جودفري في الخروج. فقال له المستر جودفري بضع كلمات مجاملة ثم انحنى كل منهما للآخر وافترقا في الشارع. وبعد أن نسجل أن هذا القريب كان هو المستر لوكر من لامبث، سنتبع الآن المستر جودفري إلى بيته في كلبورن. حيث

وجد في البهو غلاما صغيرًا ينتظره. وكان هذا الغلام فقير الزي شاحب الوجه يسترعي محياه الالتفات. وسلمه الغلام خطابًا ذكر أن سيدة عجوزًا لا يعرفها كلفته بتسليمه. ولم تطلب منه أن ينتظر ردًا. فصرف المستر جودفري الغلام وفض الخطاب.

وكان الخطاب غير مألوف لديه. وهو من سيدة متقدمة في السن لم يسمع باسمها من قبل إلى بيت في شارع نورثمبرلاند بحي ستراند، للحصول منه على تفاصيل معينة بشأن جمعية ملابس الأم. وذلك لأنها تريد أن تساهم بنصيب كبير في صندوق الجمعية.

وذكرت السيدة أن قصر مدة إقامتها في لندن هو الذي منعها من إطالة المهلة التي عينتها للمقابلة. وعلى هذا توجه المستر جودفري إلى ذلك البيت. وفتح له الباب رجل محترم جدًا، ثم قاده إلى حجرة خالية خلفية في الطابق المخصص للاستقبال فوق الطابق الأرضي، فلاحظ أمرين غريبين عند دخوله الحجرة! أحدهما انتشار رائحة خفيفة من المسك والكافور. والآخر وجود مخطوط مزوق بتصاوير هندية فاخرة. وكان مفتوحًا على المنضدة. فوقف ينظر فيه ووجهه إلى جهة الأبواب المغلقة المفضية إلى الحجرة الأخرى. وإذا به يشعر دون أن يحس بأي حركة أو نذير بيد تقبض على عنقه من الخلف. وكانت الذراع التي تحيط بعنقه عارية بنية اللون. وهذا كل ما انفسح له الوقت ليفطن إليه قبل أن تعصب عيناه ويكمم فمه ثم يلقى به على الأرض عاجزًا عن الحراك، بيد رجلين على حسب تقديره. ثم قام رجل ثالث بتفتيش جيوبه وسائر ملابسه بدقة. وتمت المسألة كلها في صمت تام. وبعد انتهاء التفتيش تبادل الرجال الثلاثة الكلام بلغة لم يفقهها. غير أن اللهجة كانت تنم بوضوح عن خيبة الأمل والغيظ. ثم رفع عن مكانه فوق الأرض ووضع على مقعد ثم ربط إليه من يديه ورجليه. وفي اللحظة التالية كان وحيدًا في الحجرة. وبعد فترة من الوقت سمع في الطابق الأسفل ما يشبه حفيف ثوب نسوي. ثم أخذ الحفيف يصعد الدرج. ثم توقف ودوت في الفضاء صرخة امرأة، وصعدت السلم بعد ذلك أقدام رجل. ثم شعر المستر جودفري بأصابع تفك العصابة من فوق عينيه وترفع الكمامة عن فمه، فنظر في دهشة إلى شخصين غريبين عنه ولكنهما مهيبان، ثم سأل

بصوت خافت:

- ما معنى هذا؟

فتبادل الشخصان الغريبان المحترمان النظر، ثم ردّا على نظرة دهشته بمثلها وقال له أحدهما: "هذا هو السؤال الذي كنا بصدد توجيهه إليك"!

ثم اتضح من أقوال رب الدار وربته أن الطابقين الأول والثاني من بيتهما استؤجرا في اليوم السابق لمدة أسبوع بواسطة سيد يبدو عليه الاحترام الكامل. وتنطبق أوصافه على الرجل الذي فتح الباب للمستر جودفري. وقد دفع هذا السيد أجر الأسبوع مقدمًا قائلًا: "إن هذه الحجرات سيشغلها ثلاثة من الكبراء الشرقيين تربطهم به أواصر الصداقة ويزورون إنجلترا لأول مرة في حياتهم". وفي اليوم التالي أقبل ومعه اثنان من هؤلاء الشرقيين ووضعوا اليد على المكان المستأجر. وأما الثالث فكان من المنتظر أن يلحق بهما بعد قليل. وكذلك الحقائب كان المفهوم أنها ستأتي في العصر بعد أن تتم إجراءات الجمرك. وقد وصل الشخص الثالث قبل وصول المستر جودفري بعشر دقائق. ولم يشعر رب البيت وربته وهما في الطابق الأسفل بأي شيء غير مألوف، إلى أن حدث منذ خمس دقائق أن أبصرا الشرقيين الثلاثة الأجانب يغادرون البيت مع صديقهم الإنجليزي المهيب، ويسيرون بهدوء في اتجاه شارع ستراند. فتذكرا أن زائرًا كان قد حضر. ولم يرياه يغادر البيت، وعجبت ربة الدار من ترك الزائر وحده في الطابق العلوي. وبعد مناقشة يسيرة مع زوجها صعدا ليريا إن كان قد حدث شيء على غير ما يرام. وإلى هنا انتهى بيانهما!

وتم تفتيش الحجرة المجاورة حيث وجدت محتويات جيوب المستر جودفري مبعثرة في أرجائها، ولكن لم ينقص منها شيء. وكذلك لم يغب شيء من ممتلكات صاحبي الدار. فقد أخذ النبلاء الشرقيون مخطوطهم وتركوا كل ما عدا ذلك!

على ان الصك المالي الذي تلقيته من قريبي الثري، يوحي إليّ بأنني لم أفرغ بعد من رواية ذلك الاعتداء العنيف. فينبغي أن نترك الآن المستر جودفري يسترد هدوءه في شارع نورثمبرلاند، ثم نقتفي خطوات المستر لوكر في فترة تالية من ذلك اليوم:

ما كاد المستر لوكر يعود من المصرف إلى بيته حتى وجد في انتظاره خطابًا حمله إلى هناك خادم صغير ثم انصرف قبل عودته بقليل.

وكان خط الخطاب غريبًا عليه أيضًا، ولكن الاسم الذي يحمله الخطاب اسم أحد عملائه المعروفين، وهو يخبره بأنه دعي إلى لندن على غير انتظار، فنزل في مسكن ببيت في شارع "ألفريد" في طريق توتهنكورت. وأنه يريد مقابلته هناك فورًا بشأن صفقة يرغب في عقدها. فدعا المستر لوكر عربة ركبها إلى هناك. وما وقع للمستر جودفري في شارع نورثمبرلاند حدث بالضبط للمستر لوكر في شارع ألفريد. وكذلك الإيضاح الذي قدمه رب البيت في شارع نورثمبرلاند إلى المستر جودفري، هو بالضبط الذي قدمه رب البيت في شارع ألفريد للمستر لوكر. ونقطة الخلاف الوحيدة في الحالتين حدثت عندما جمعت محتويات جيوب المستر لوكر المبعثرة من فوق الأرض. فقد وجدت ساعته وحافظة نقوده سالمتين. ولكنه كان أقل حظًا من المستر جودفري من حيث إن ورقة من أوراقه المتفرقة التي يحملها معه سلبت. وهذه الورقة هي إيصال شيء ثمين باهظ الثمن كان المستر لوكر قد أودعه ذلك النهار لدى رجال المصرف. غير أن ذلك الإيصال لا جدوى منه لأي شخص سواه، لأن المتفق عليه بصريح النص أن ذلك الشيء الثمين لا يصح تسليمه إلا بطلب من المالك نفسه!

وما كاد المستر لوكر يسترد صوابه حتى أسرع إلى المصرف آملًا أن يتقدم اللصوص بأنفسهم لتقديم إيصال. ولكنهم لم يظهر لهم أثر قبل وصوله، كما لم يظهر لهم أثر بعد ذلك. ويرى رجال المصرف أن صديقهم الإنجليزي المهيب تصفح الإيصال وحذرهم التحذير الواجب.

واعتقدت السلطات أن جريمة سرقة قد دبرت على أساس معلومات غير كافية وصلت إلى اللصوص. فلم يكونوا واثقين هل أعطى المستر لوكر الجوهرة الثمينة لشخص آخر أم لا؟ وقد لقي المستر جودفري ذلك العناء لأنه شوهد يتحدث بطريق الصدفة إلى المستر لوكر!

أما وقد فرغت من إيراد جميع الإيضاحات، فلي أن أستأنف قصتي المتواضعة عن اختباراتي الشخصية اليسيرة في ميدان مونتاجو:

وصلت في موعد الغداء بالضبط يوم الثلاثاء. وقد تلقتني زوجة خالي برقتها المعهودة، ولكني لاحظت أن شيئًا ما لم يكن على ما يرام، فقد ندت عن زوجة خالي بعض نظرات قلق موجهة كلها نحو ابنتها. وأنا شخصيًا ما رأيت راشيل يومًا إلا تعجبت كيف يمكن أن تكون ابنة للسير جون والليدي فيرندر. أما في هذه المرة فقد أصابتني بصدمة حقيقية، إذ كانت تفيض بتوفز عصبي محموم جعل ضحكاتها حين تضحك تعلو علوًا ينبئ عن كآبة النفس، وجعل طعامها وشرابها على مائدة الغداء متسمين بالإسراف الخبيث. فلما انتهى الغداء قالت زوجة خالي لابنتها:

- تذكري يا راشيل ما قاله لك الطبيب عن ضرورة تهدئة نفسك بكتاب تطالعينه بعد تناول وجبات الطعام!

- سأذهب إلى المكتبة يا أماه. ولكن إن حضر جودفري فلا بد من إخباري، فإني أموت شوقًا إلى مزيد من أخباره بعد مغامرته في شارع نورثمبرلاند!

ثم قبلت جبين أمها، ونظرت نحوي وقالت بغير اكتراث:

- إلى اللقاء يا كلاك!

فلما انفردت بزوجة خالي، أخبرتني بقصة الماسة الهندية بأكملها. ولما كنت أعرف روح راشيل فقد كنت مهيأة لسماع أي شيء تقوله لي زوجة خالي عنها. غير أن الذي صدمني أن الموقف يقتضي الاستعانة بقسيس، في حين أن الليدي فيرندر تظن المسألة من اختصاص الطبيب، وقالت:

- إن الأطباء أوصوا بالإكثار من الرياضة والمسرات لراشيل، وطلبوا مني أن أحول ذهنها بقدر المستطاع عن التفكير في الماضي، وأنا أبذل جهدي في هذا السبيل. ولكن هذه المغامرة الغريبة التي وقعت لجودفري جاءت في أسوأ الأوقات. فلم تترك لي راشيل لحظة هدوء. إلى أن كتبت طالبة إلى ابن شقيقتي إيبلوايت أن يحضر لزيارتنا. بل إنها تهتم أيضًا بالشخص الآخر الغريب الذي وقع عليه مثل ذلك الاعتداء.

- لا بد أن هناك سببًا لهذا السلوك الغريب من جانب راشيل. وأنها تخفي عليك سرًا. ولا يستبعد أن يكون هناك شيء وراء هذه الوقائع تخشى أن يفتضح.

- يفتضح؟ ماذا تقصدين؟ الافتضاح عن طريق المستر لوكر، أم الافتضاح عن طريق ابن شقيقتي؟

وما خرجت من بين شفتيها هذه الكلمات حتى فتح الخادم الباب مؤذنًا بقدوم المستر جودفري إيبلوايت!

وعلى عادة المستر جودفري في كل ما يصنعه، تخير الوقت المناسب بالضبط للدخول على أثر إعلان اسمه. ثم قالت زوجة خالي للخادم:

- اذهب إلى الآنسة فيرندر وأخبرها بأن المستر ايبلوايت قد حضرا!

وسألناه عن صحته، فتمكن بلباقة تامة من الرد علينا معًا في وقت واحد، فكانت كلماته موجهة إلى الليدي فيرندر، أما أنا فخصني بابتسامته الساحرة. وكان يقول:

- ماذا صنعت لأستحق كل هذا العطف يا خالتي العزيزة ويا عزيزتي الآنسة كلاك؟! لقد ظنوني شخصًا آخر. ولو ترك الأمر لي لكتمت هذه المغامرة بيني وبين نفسي، لأنني أنفر من كل ضجة وإعلان. كيف حال العزيزة راشيل؟ ألا تزال في استمتاعها بمباهج لندن؟ الحقيقة يا آنسة كلاك أنني حزين لتقصيري في حق لجنة العمل وسيداتي العزيزات. ولكني آمل حقيقة أن أحضر في الأسبوع القادم جمعية ملابس الأم!

وكنت أهم بالرد عليه عندما انفتح الباب ودخلت الآنسة فيرندر بسرعة أبعد ما تكون عن اللياقة. أما وجهها فكان في رأيي متوهجًا توهجًا غير مناسب. وقالت له:

- إني لسعيدة برؤيتك يا جودفري! وكنت أتمنى لو أنك أحضرت المستر لوكر معك. فأنتما في الوقت الحاضر أشد رجلين استرعاءً للاهتمام في لندن. فقص عليّ فورًا قصة شارع نورثمبرلاند برمتها!

فتدخلت زوجة خالي قائلة: "لقد قال جودفري منذ لحظة إنه لا يميل إلى الخوض في هذا الموضوع".

وتساءلت راشيل عن السبب، وفي عينيها وميض مباغت ونظرة مباغتة أيضًا نحو

فحيّا المستر جودفري، فنظر إليها في سماحة شعرت معها بضرورة التدخل، فقلت لها برفق:

- يا عزيزتي راشيل، إن الشجاعة الحقة تتسم على الدوام بالتواضع!

فلم تعرني أدنى التفات، وجرت مستر جودفري جرًا عبر الحجرة إلى مقعد بجوار النافذة بحيث يسقط الضوء على وجهه، ثم شرعت تلقي عليه سلسلة من الأسئلة، غير ملقية بالًا إلى والدتها أو إليّ أنا، وكأننا غير موجودتين بالحجرة. وبعد فترة من الوقت قالت:

- إن الذين يقولون إن الثلاثة المجهولين الذين اعتدوا عليك وعلى المستر لوكر هم الهنود الثلاثة، يقولون أيضًا: إن الحجر الكريم الثمين..

وعندئذ توقفت وشحب وجهها شحوبًا شديدًا حتى ظننا جميعًا أنه سيغشى عليها. ورجت منها والدتها ألا تستطرد في الكلام، غير أنها استطردت قائلة:

ليس هناك أدنى داعٍ للفزع بشأني. وأنت يا كلاك تموتين شوقًا إلى سماع بقية الكلام. فلن يغمى عليّ عمدًا إرضاء لخاطرك أنت!

وكانت هذه كلماتها بحذافيرها، كما سجلتها في يومياتي لحظة عودتي إلى البيت. ثم التفتت مرة أخرى نحو المستر جودفري وقالت له:

- قل لي بصراحة يا جودفري. هل قال أحد من الناس، أي أحد منهم، إن جوهرة المستر لوكر الثمينة هي بعينها.. جوهرة القمر؟

- نعم. إنهم يقولون ذلك!

- لقد ذكرت ما تقول الشائعات عن المستر لوكر، فماذا تقول الشائعات عنك أنت؟

فاغرورقت عينا المستر جودفري بالدموع، وقال هذه الكلمات الحاسمة:

- ما دمتِ تصرين يا راشيل، فإشاعات السوء تقول: إن جوهرة القمر مرهونة لدى المستر لوكر، وأنني أنا الذي رهنها لديه!

فوثبت على قدميها حتى حسبتها جنت، وصاحت قائلة:

- الذنب في هذا ذنبي! لقد ضحيت بنفسي، وذلك من حقي، ولكن ليس لي أن أسلم رجلًا بريئًا للبوار والدمار، إن هذا شيء فظيع!

فنهضت زوجة خالي نصف نهوض، ثم عادت إلى الجلوس بغتة ونادتني بصوت ضعيف، وأشارت إلى زجاجة صغيرة في صندوق أشغالها هامسة:

- أسرعي! ست نقط في قليل من الماء. ولا تدعي راشيل تلمحك! ولم يكن أمامي وقت للتفكير، إذ شغلت بتقديم الدواء فقط، أما راشيل فانتقلت من سيئ إلى أسوأ، إذ قالت:

- ينبغي أن أوقف هذا الغبن. ولسوف أوقفه. اسمع ما أقول، إني أعرف اليد التي أخذت جوهرة القمر، وأعلم أن جودفري إيبلوايت بريء!

وهمست زوجة خالي قائلة لي، وقد لاحظت ازرقاق لونها ففزعت:

- قفي فيما بيني وبينها دقيقة أو اثنتين. وستعيدني هذه النقط إلى حالتي الطبيعية في دقيقة أو دقيقتين!

ثم أغلقت عينيها وانتظرت. وقبل أن يتفوه أحد بكلمة، بوغتنا بطرق على الباب، وعبرت راشيل الحجرة نحو والدتها وقالت لها:

- لقد حضروا لأخذي إلى معرض الزهور. وأريد كلمة أخيرة يا أمي قبل أن أذهب. هل أحزنتك؟

وكانت النقط قد فعلت فعلها، فاستردت زوجة خالي المسكينة لونها الطبيعي وقالت:

- كلا يا عزيزتي. اذهبي مع أصحابك وتمتعي!

فانحنت ابنتها وقبلتها. وكنت قرب الباب حين اقتربت منه راشيل لتخرج. فإذا تغير آخر قد طرأ عليها. كانت دموعها تنهمر. فشعرت بميل إلى توجيه بضع كلمات رقيقة صادقة إليها، فسألتني في صوت هامس يقطر مرارة:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ماذا تعنين بالرثاء لي والشفقة عليّ؟ ألا ترين كم أنا سعيدة؟ إني ذاهبة إلى معرض الزهور يا كلاك، وعلى رأسي أجمل قبعة في لندن!

فعدت إلى مقعد زوجة خالي. وعاد إلينا المستر جودفري فمد يديه إلينا مودعًا. فأغمضت عيني، ورفعت يده في نوبة من النكران الروحي للذات إلى شفتي. ولما فتحت عيني كنت كمن عادت من السماء إلى الأرض. فلم يكن في الحجرة أحد سوى زوجة خالي. أما هو فمضى!

ولما وجدت نفسي على انفراد مع الليدي فيرندر، عدت بالطبع إلى موضوع صحتها. وكان جواب زوجة خالي مثار دهشة عظيمة لي. إذ قالت لي:

- لقد اكتشفت سرًا لم أفضِ به لأحد سوى شقيقتي السيدة إيبلوايت ومحاميّ المستر براف. ولي فيهما ثقة. وإني موقنة بأنني حين أطلعك على الظروف أستطيع أن أثق بك، فعندي خبر أعتقد أن سماعه لن يسرك. وتستطيعين المكث هنا إلى أن يحضر المستر براف في الساعة الخامسة، وفي وسعك حينئذ أن تكوني يا دروزلا من بين الشهود عندما أوقع وصيتي.

وخطر ببالي اللون الضارب إلى الزرقة الذي رأيته على محياها، وأشرق على ذهني نور ليس من هذا العالم، وإذا سر زوجة خالي لم يعد سرًا!

انتظرت في صمت أن تبدأ زوجة خالي حديثها على هواها. فقالت:

- لي زمن يا دروزلا وأنا أعاني مرضًا خطيرًا لا أدري ما هو، فقد أحضرت راشيل إلى لندن كما تعلمين للاستشارة الطبية. ورأيت من الحكمة أن استشير طبيبين. وكان أحدهما غريبًا عني، أما الآخر فكان صديقًا قديمًا لزوجي. وبعد أن وصف علاج راشيل، أبدى رغبته في التحدث إليّ على انفراد في حجرة أخرى. وهناك تناول يدي في وجوم وقال: "لقد كنت يا ليدي فيرندر أتطلع إليك باهتمام مهني وشخصي معًا. وأخشى أن تكوني أحوج إلى رعاية الطبيب من كريمتك كثيرًا". وانتهى الأمر بتحديد موعد يحضر فيه ليراني وفي صحبته طبيب صديق في اليوم التالي، في ساعة سوف لا تكون راشيل فيها بالبيت. وكانت نتيجة الزيارة أن اقتنع الطبيبان معًا بأن

حالتي تجاوزت مقدور فنهما. فلي أكثر من سنتين وأنا مصابة بمرض القلب وربما عشت بضعة أشهر. وربما أيضًا مت قبل انقضاء يوم آخر. وأن همي الأكبر ألا تعلم راشيل الحقيقة. فلو علمت لظنت أن اعتلال صحتي مرجعه إلى الماسة، ولأنحت الطفلة المسكينة على نفسها باللوم في أمر لا ذنب لها فيه على الإطلاق. وإني واثقة بأنك ستكتمين سري يا دروزلا!

فاحتضنت زوجة خالي وقلت لها:

- كم أريد أن أسدي إليك معروفًا يا عزيزتي قبل أن نفترق!

وكنت أمتلك مكتبة صغيرة من مؤلفات تلائم جميعها تلك المناسبة فقلت:

- هل تقرئين كتبي الخاصة الثمينة إن جئتك بها؟ ستجدين فيها علامات بالقلم الرصاص تقفين عندها وتسألين نفسك: "هل هذا يصلح لي"؟

فقالت زوجة خالي وقد بدت عليها الدهشة:

- سأصنع كل ما في وسعي يا دروزلا إرضاءً لك!

ودلتني الساعة على أن الوقت يتسع لكي أسرع إلى البيت فأزود نفسي بسلسلة أولى من القراءات المختارة ثم أرجع في موعد حضور المحامي. وهكذا غادرت البيت واعدة بالرجوع في الساعة الخامسة، وذهبت لأقوم بمهمتي الخيرية.

أسرعت إلى بيتي فتخيرت الكتب، ووضعت العلامات على صفحاتها، وعدت على عجل إلى ميدان مونتاجو حاملة اثني عشر مؤلفًا في حقيبة من القماش.

وأخبرني الخادم الذي لبّى طرق الباب أن الطبيب حضر، وما يزال مختليًا بالليدي فيرندر. وأن المستر براف المحامي وصل منذ دقيقة، وهو ينتظر في المكتبة، ثم أدخلت إلى المكتبة لأنتظر كذلك.

وبدت الدهشة على مستر براف لرؤيته إياي، وهو محامي الأسرة، ورجل كفء في ساعات الفراغ لمطالعة رواية والمناقشة في منشور. وقد سألني مشيرًا بعينيه إلى حقيبتي إن كنت قد حضرت للإقامة. فقلت له:

- إن زوجة خالي أخبرتني بانها بصدد توقيع وصيتها. وقد تكرمت فطلبت مني أن أكون من ضمن الشهود!

- حسنًا يا آنسة كلاك! إنك تصلحين لذلك فعمرك قد تجاوز الحادية والعشرين. وليس لك أدنى مصلحة مالية في وصية الليدي فيرندر!

وكم حمدت الله عندما سمعت هذا الكلام، فلو أن اسمي ظهر في الوصية مقرونًا بهبة مالية تكفل لي اليسر، لشك أعدائي في صدق دوافعي إلى أن أحمل إليها أعظم كنوز مكتبتي، فالخير كل الخير فيما حدث.

ونبهني من خواطري المعزية صوت المستر براف يسألني:

- كيف حال صديقك المستر جودفري إيبلوايت يا آنسة كلاك بعد الذي ناله من يد هؤلاء الأوغاد في شارع نورثمبرلاند؟ إنهم يروون أشياء لطيفة في نادينا عن هذا السيد الكريم!

- إني أعيش بمعزل عن العالم. ولكني أعلم أنه ما من فرية في العالم أشد بهتانًا من تلك الأقاويل!

- أجل أجل يا مس كلاك. أنت طبعًا تثقين في صديقك، ولكن المستر جودفري إيبلوايت لن يجد العالم كله مستعدًا للإيمان به بسهولة كلجان السيدات وجمعيات البر. فالظواهر كلها ضده بشكل قاطع. فقد كان في البيت حين ضاعت الماسة، وكان أول شخص ذهب إلى لندن بعد ذلك ثم ما كاد الهنود يطلق سراحهم من سجن فريزنجهول، حتى قبضوا عليه وفتشوه، كما صنعوا مع المستر لوكر. فالنتيجة الواضحة المستقيمة أن المستر إيبلوايت له مصلحة خاصة في ذلك الشيء الثمين كالمستر لوكر تمامًا. ولمَّا كان الهنود لا يعرفون في حوزة أيهما ذلك الشيء، فقد فتشوهما معًا!

- ولكن هل من الإنصاف يا سيدي للمستر جودفري إيبلوايت أن تتغاضوا عن رأي الشرطي اللندني المشهور الذي كان مكلفًا بهذه القضية؟ إن الشبهة لم تعلق بأي شخص في نظر الجاويش كاف اللهم إلا بالآنسة فيرندر!

- أعتقد أن الجاويش كان مخطئا تمام الخطأ يا سيدتي!

- إذن هل لي أن أخبرك يا مستر براف بأن المستر جودفري إيبلوايت كان في هذه الدار منذ أقل من ساعتين. وأن براءته قد أقرت بها الآنسة فيرندر نفسها بأقوى بيان؟

وطاب لي أن أستمتع برؤية المستر براف وقد بهت لكلماتي القليلة الواضحة فقلت له:

- والآن ماذا تقول في المستر إيبلوايت؟

- إن كانت راشيل قالت إنه بريء يا آنسة كلاك، ففي هذه الحالة أثق به كما تثقين أنت. لقد ضللتني المظاهر، كما ضللت أكثر الناس!

وعلى أثر هذه الكلمات أشاح عني بوجهه، وراح يتمشى في الغرفة جيئة وذهابًا في توتر عصبي، فقلت له:

- عفوك لقطعي تيار أفكارك! هل لي أن أذكرك بأن المستر فرنكلن بليك كان في البيت عندما ضاعت الماسة، شأنه شأن المستر جودفري إيبلوايت، وأن ديون المستر فرنكلن بليك معروف أمرها جدًا للأسرة!

- إن ديون المستر جودفري إيبلوايت لم يعرف أمرها بعد. ولكن هناك صعوبتان تعترضان نظريتك يا آنسة كلاك. فأنا مدير أعمال فرنكلن بليك، وأرجو أن أحيطك علمًا بأن معظم دائنيه يعلمون أن والده واسع الثراء، ولذلك هم مستعدون للصبر على استيفاء أموالهم. وهذه هي الصعوبة الأولى. أما الصعوبة الأخرى فأعظم من هذه. وقد بلغتني من فم الليدي فيرندر نفسها، وهي أن ابنتها كانت مستعدة للزواج من فرنكلن بليك قبل أن تختفي هذه الماسة الجهنمية من البيت. ولك أن تعديه وغدًا كما تشائين، ولكن خبريني ما الدافع له إلى سرقة جوهرة القمر؟

وفي هذه اللحظة دخل الخادم ليقول: إن الطبيب قد انصرف، وان زوجة خالي متهيئة لاستقبالنا!

تم التوقيع على الوصية في سرعة بدت لي غير لائقة. واستدعى الحاجب صمويل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ليقوم بدور الشاهد الثاني. ثم وضع القلم على الفور بين يدي زوجة خالي. وطوى المستر براف الوصية ونظر نحوي متسائلًا هل أنوي تركه وحده مع زوجة خالي؟

وكانت حقيبة كتبي الثمينة في حجري، ولكن نظراته ما كانت لتحركني، فأسرع بالانسحاب على عجل!

ولما صرنا وحدنا أنا وزوجة خالي، تكلمت معي في شيء من الاضطراب والخجل الظاهر عن وصيتها، قالت لي وهي تتمدد على الأريكة:

- أرجو ألا تظني أنني أهملتك يا دروزلا. فإني أنوي أن أعطيك هبتك يا عزيزتي بيدي!

لقد كانت هذه هي الفرصة الذهبية! ففتحت حقيبتي وأخرجت أول كتاب، وكان عنوانه "الثعبان في البيت". ثم قلت لها وأنا أقدمه لها مفتوحًا عند فقرة عنوانها: "الشيطان وسط وسائد الأريكة".

- أعيري اهتمامك كله يا زوجة خالي لهذا الكتاب الثمين، وبذلك تكونين قد أعطيتني كل ما أريد!

فاضطجعت الليدي فيرندر المسكينة، ونظرت في الكتاب ثم ردته إليّ قائلة:

- أخشى يا دروزلا أنني يجب أن أنتظر حتى تتحسن حالي قليلًا وأستطيع القراءة!

- ربما شعرت يا عزيزتي بمزيد من القوة بعد ساعة أو ساعتين. وسأترك الكتاب!

ثم دسست الكتاب تحت وسائد الأريكة، وخطر لي بعد ذلك أن الوقت قد حان للانصراف. وعندئذ خطرت لي الخاطرة السعيدة الموفقة: "ولماذا لا أترك للعزيزة المسكينة كتابًا في كل حجرة تدخلها"؟ وقد فعلت. فهل تكفي الكلمات للتعبير عن النشوة بقضاء الواجب حين تسللت خارجة من البيت دون أن يشعر بي أحد، فوجدت نفسي في الشارع وحقيبتي خاوية تحت إبطي؟

وأمضيت ليلة سعيدة. وحول موعد الغداء في اليوم التالي، ارتديت قبعتي وتوجهت إلى ميدان مونتاجو، متخيرة تلك الساعة لا رغبة في عرض الحياة الدنيا،

بل ليكون من المحتم وجود زوجة خالي العزيزة في البيت. وفيما أنا أستعد، أطلت خادم المسكن الذي كنت أعيش فيه يومئذ من الباب وقالت:

- خادم من قبل الليدي فيرندر لمقابلة الآنسة كلاك!

وكان الرسول هو صمويل الحاجب الشاب، فدخل وتحت إبطه لفافة كبيرة وقال:

- مع مودة مولاتي يا آنسة، وستجدين خطابًا بالداخل!

وبعد أن أدى رسالته، بدا عليه كأنه يريد أن يولي الأدبار. غير أني استبقيته لمزيد من الإيضاحات، وسألته: "هل يمكن أن أقابل زوجة خالي إذا توجهت إلى ميدان مونتاجو الآن"؟

فقال: "إنها خرجت في عربتها للنزهة. والآنسة راشيل خرجت معها. وقد ذهب معهما أيضًا المستر إيبلوايت"! ثم انصرف راكضًا زاعمًا أن عليه أن يشتري تذاكر حفلة موسيقية!

ولما وجدت نفسي في الحجرة بمفردي، نظرت إلى اللفافة، وتساءلت: ترى هل أرسلت زوجة خالي هديتي الموعودة؟ ثم فتحت اللفافة فإذا بمؤلفاتي الثمينة الاثني عشر التي كنت قد نثرتها في البيت بالأمس، وقد أعيدت إليّ بأمر الطبيب. أما خطاب زوجة خالي فكان مضمونه ببساطة أنها لا تستطيع أن تعصي أوامر طبيبها. فلم يخامرني الشك أو التردد لحظة واحدة فيما يجب أن أصنعه بعد ذلك. فلأجرب استعمال مذكرات صغيرة. ولئن كانت الكتب قد أعيدت، فيحسن نسخ مقتطفات من هذه الكتب بخطوط مختلفة توجه كلها على صورة خاطبات إلى زوجة خالي، بحيث يرسل جانب منها بالبريد، أما الجانب الآخر فينثر في أرجاء البيت بالطريقة التي تركت بها الكتب!

وقمت بكتابة بعض هذه الرسائل بنفسي. وقام بكتابة الباقي زميلاتي العاملات معي في جمعية ملابس الأم. وقبل المساء كانت قد تجمعت عندي اثنتا عشرة رسالة، بدلًا من الاثني عشر كتابًا! فأرسلت ستة خطابات منها بالبريد، واحتفظت بالستة الأخرى في جيبي لأتركها في البيت في اليوم التالي!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وبعد الساعة الثانية مباشرة من اليوم التالي، كنت هناك أسأل صمويل عن الليدي فيرندر، فعلمت أن زوجة خالي قضت ليلة سيئة. فقلت له: "سأنتظر في المكتبة على أمل مقابلتها". وهناك وجدت بريد الصباح، وفيه خطاباتي الستة التي أرسلتها في الليلة السابقة ملقاة لم تفض على مائدة المكتبة، فدسست عددًا آخر منها في الطابق الأرضي، ثم صعدت الدرج برشاقة وخفة كي أنثر رحمتي هناك أيضًا. وإذ أنا أدخل الحجرة الأمامية سمعت طرقة خفيفة على باب الشارع. وقبل أن يتسع لي الوقت للتفكير في التسلل راجعة إلى المكتبة حيث المفروض أنني جالسة في الانتظار، كان الحاجب الشاب قد أجاب الطارق، وكم كان فزعي وأنا أسمع صوت صمويل من أسفل وهو يقول: "في الطابق العلوي يا سيدي". وفي هذه اللحظة سمعت وقع أقدام رجل يقترب من طابق حجرة الاستقبال. فمن عساه يكون إلا الطبيب. وحال احترامي لنفسي دون مقابلة الشخص الذي أهانني بإعادة كتبي إليّ. فتسللت إلى الحجرة الصغيرة الثالثة، وأسدلت الستائر التي سدت فتحة الباب. فلو بقيت هناك لحظة أو لحظتين فسوف يدخل الطبيب إلى حجرة مريضته!

وانتظرت، وسمعت الزائر يتمشى جيئة وذهابًا. وسمعته أيضًا يكلم نفسه. وكانت الكلمات التي سمعتها هي:

- بل سأفعل ذلك في يومي هذا!

أما الصوت الذي تفوه بهذه الكلمات فكان صوت مستر جودفري إيبلوايت!

وسقطت يدي إلى جانبي. إنه سيفعلها اليوم! يفعل ماذا يا ترى؟

وخيل إليّ أنني كنت قمينة بالاندفاع من مكمني لأستوضحه، لولا أنني سمعت بغتة صوتًا آخر في الحجرة. وكان صوتًا عاليًا تنقصه كل مقومات سحر الأنوثة كان صوت راشيل فيرندر. وإذا بها تسأله:

- لماذا صعدت إلى هنا يا جودفري؟ لماذا لم تذهب إلى المكتبة؟

فضحك بلطف وأجابها: "لأن الآنسة كلاك في المكتبة".

- كلاك في المكتبة؟ إذن خيرًا فعلت يا جودفري. وأفضل كثيرًا أن نبقى هنا!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وكان من المستحيل أن أظهر نفسي بعد الذي سمعت. وبكل سكينة نظمت وضع الستائر بحيث أتمكن من الرؤية والسماع معًا. وقالت هي:

- ماذا قلت لهم؟

- ما قلته لي بالضبط يا عزيزتي راشيل!

- إن والدتي ليست اليوم على ما يرام، ولا أستطيع أن أتركها لأذهب إلى الحفلة الموسيقية.. إنك لترى الأمر خطيرًا يا جودفري. أليس كذلك؟

- في مدى بضعة أيام ستكون على خير ما يرام. هذا هو اعتقادي!

- أظن أنا ذلك أيضًا، ولكن لماذا لم تذهب معهم إلى الحفلة الموسيقية؟

- آه لو علمت كم أنا أسعد حالًا بالبقاء هنا معك!

- حاول أن تتغلب على عادة التودد إليّ بالثناء!

- لم أوجه لكِ مجاملة في حياتي على الإطلاق. فالحب بلا أمل يا عزيزتي لا ينطق إلا بالصدق على الدوام!

- هل نسيت ما اتفقنا عليه يا جودفري عندما فاتحتني في الريف؟ لقد اتفقنا على أن نكون ابني خالة لا أكثر!

- إني أخل بالاتفاق كلما فكرت فيك. لقد فقدت كل اهتمام بالحياة إلا اهتمامي بك. أتصدقين هذا؟ إن أعمالي الخيرية أصبحت عبئًا ثقيلًا على نفسي! وعندما أشهد لجنة السيدات الآن أتمنى لو كنت في أقاصي الأرض!

وعندما سمعت هذا الكلام كانت تجربة امتحنت بها قوة أعصابي كي أبتلع استنكاري في صمت! وفي الوقت نفسه من الإنصاف لشخصي أن أقرر أنه ما من كلمة واحدة من الحديث فاتتني. فقد قالت راشيل بعد ذلك:

- لقد أدليت باعترافك! وليت شعري هل يشفيك من شعورك العاثر نحوي أن أدلي لك أيضًا باعترافي؟

وبوغت، وأقر أنا أنني أيضًا بوغت. فقد ظن كلانا أنها توشك أن تخبرنا بسر جوهرة القمر. وإذا بها تستطرد قائلة:

- هل تظن وأنت تنظر إليّ أنني أشقى فتاة في الحياة؟ وماذا يمكن أن يكون أدعى للشقاء من فقدانك حسن الرأي في نفسك؟

- إن صمتك يا أعز الناس لم يقلل من قيمتك في رأي أصدقائك. وقد يبدو اختفاء هدية عيد ميلادك غريبًا. وقد تبدو الصلة بينك وبين هذه المسألة غريبة أيضًا أكثر من الاختفاء نفسه!

- ليس كلامي عن جوهرة القمر يا جودفري. فإنه إن كتب يومًا لقصة الماسة أن تعرف، لتبين أنني أخفي سرًا منكودًا. ولكن سيتضح وضوح الشمس في رائعة النهار أنني لم أرتكب نقيصة! لقد أسأت فهمي يا جودفري، وسأكون أكثر صراحة في كلامي. هب أنك تهوى امرأة أخرى، وهب أنك اكتشفت أن تلك المرأة غير جديرة بك.. وهب أنه مع ذلك كله لا قدرة لك على انتزاعها من قلبك! كيف عساني أجد الألفاظ للتعبير عما بي. إن هذا الأمر يا جودفري هو نسمة حياتي، وهو السم الذي يقضي على تلك الحياة في الوقت نفسه! قد تراني أني مجنونة إذ أتفوه بما أتفوه به الآن! كلا! بل ينبغي ألا تتزود بفكرة مضللة. إنه لا يعلم، وسوف لا يعلم. ولن يعلم ما قلته لك الآن. لأني لن أراه بعد ذلك. لا تشفق عليّ! بل نشدتك الله أن تنصرف!

ثم استدارت على أعقابها بغتة وانفجرت باكية! وقبل أن يتسع لي الوقت للإحساس بصدمة ما رأيت وسمعت، صعقت بما حدث من جانب المستر جودفري فهل يصدق أحد أنه خرّ على ركبتيه ثم طوقها بذراعيه وقال لها:

- أنت مخلوقة نبيلة، وإن امرأة تستطيع أن تقول الحق من أجل الحق، وإن امرأة تضحي بكبريائها قبل أن تضحي برجل أمين يحبها، لهي أغلى ثمنًا من كل كنوز الأرض. راشيل. هل تشرفينني بأن تكوني زوجتي؟

وفي هذه المرة كنت حرية أن أقرر سد أذني، لولا أن راشيل شجعتني على تركهما مفتوحتين، بأن أجابته بأول كلمات معقولة سمعتها من شفتيها:

- يا جودفري. لا شك عندي أنك مجنون! فعندي كفايتي من الشقاء، وأنا على حالي. فلا تغرني بمزيد من البأساء!

- سؤال واحد يا راشيل. هل تكرهينني؟

- أنا؟ لقد وددتك على الدوام. ولكني أكرر عليك أن عندي من الشقاء ما يكفيني لكي أتزوجك إذا قلت كلمة أخرى. فخذ حذرك وانصرف!

- بل لن أنهض من ركوعي إلى أن تقولي نعم!

- هل أنت جاد في شعورك؟

- سترين بنفسك!

- وهل تقبل ألا تتعجلني يا جودفري؟

- سيكون الوقت الذي يناسبني هو الذي تختارينه يا ملاكي!

وجعل يجتذبها شيئًا فشيئًا حتى لامس وجهها وجهه. وساد التفاهم بينهما على أتمه في هذه اللحظة حتى توقعت أن أراهما ينطلقان معًا، وقد تشابك ذراعاهما، ليعقد قرانهما. غير أن مستر جودفري جلس إلى جوارها وسألها:

- هل أفاتح والدتك العزيزة أو تفاتحينها أنت؟

- بل لا تسمع مني ولا منك. إلى ان تتحسن حالتها. فاذهب الآن وعد في المساء. فقد ظللنا في الوقت الحاضر على انفراد معًا وقتًا طويلًا. ولكن من أسدل هذه الستائر؟

ونظرت لأول مرة نحو الحجرة الصغيرة التي كنت أتعذب فيها ثم قالت:

- إن الحجرة حارة من غير حاجة إلى حبس الهواء عنها على هذه الصورة!

ثم اتجهت صوب الستائر. وفي اللحظة التي وضعت فيها يدها عليها وبات افتضاح أمري محققًا، حال صوت الحاجب الشاب دون صدور أي حركة من جانبها أو من جانبي. وكان صوتًا ينم عن فزع شديد. وهو يصيح:

- يا آنسة راشيل. أين أنت يا آنسة راشيل؟

فقفزت مرتدة عن الستائر راكضة نحو الباب. ودخل الحاجب وقد اصفر لونه وناداها قائلًا:

- أسرعي بالنزول يا آنسة! لقد أغمي على مولاتي ولم نستطع إفاقتها!

وفي لحظة واحدة كنت وحدي، حرة في النزول من غير أن يراني أحد، ومرّ بي مستر جودفري في البهو مسرعًا في طريقه لاستدعاء الطبيب فقال لي:

- ادخلي وساعديهم!

ووجدت راشيل راكعة بجوار الأريكة ورأس أمها على صدرها. وكانت نظرة واحدة إلى وجه زوجة خالي كافية لإطلاعي على الحقيقة البشعة. ولم يلبث الطبيب أن حضر، فبدأ بإخراج راشيل من الحجرة. وبعد ذلك أخبرنا أن الليدي فيرندر قضت نحبها!

وبعد ساعة، نظرت في حجرة الإفطار، وفي المكتبة. فوجدت أن زوجة خالي ماتت قبل أن تفتح أي خطاب من الخطابات التي كنت قد بعثت بها إليها. وعز عليّ ذلك كثيرًا حتى لم يخطر ببالي إلا بعد انقضاء بعض أيام أنها أيضًا ماتت من غير أن تعطيني الهبة اليسيرة الموعودة!

نقلت رفات زوجة خالي من لندن ووريت في المقبرة الصغيرة الملحقة بالكنيسة في حديقة دارها بالريف. وقد دعيت مع سائر أفراد الأسرة إلى حضور الجنازة. وكان من المستحيل بسبب آرائي الدينية أن أفيق في بضعة أيام من الصدمة التي سببتها لي هذه الميتة. وقد تركت الليدي فيرندر كريمتها في رعاية زوج شقيقتها المستر إيبلوايت الوالد، إلى أن تبلغ سن الرشد أو تتزوج. وفي ضوء هذه الظروف أعتقد أن المستر جودفري أخبر والده بالعلاقة الجديدة التي ربطته براشيل. وعلى أي حال لم تمضِ عشرة أيام على وفاة زوجة خالي حتى أمسى سر الخطبة معروفًا في محيط الأسرة كلها.

وقد سببت راشيل في مبدأ الأمر بعض المتاعب بسبب اختيارها للمكان الذي ترغب الإقامة به. وانتهى الإشكال بشراء مستر إيبلوايت الكبير بيتًا مفروشًا في ضاحية برايتون، لكي تقيم به زوجته وابنته المقعدة وراشيل مؤقتًا، ولا يختلطن بالمجتمع اللهم إلا بحفنة من الأصدقاء القدامى. أما ابنه جودفري فيزورهن بقطار لندن كلما احتجن إليه!

والخالة إيبلوايت امرأة ضخمة صموت شقراء، لم يعرف عنها منذ ساعة ميلادها أنها صنعت شيئًا لنفسها. فقد عثرت على هذا البيت في برايتون بأن نزلت في فندق بلندن وتمددت فوق أريكة ثم أرسلت في طلب ابنها. واكتشفت الخدم اللازمين لها بأن أعطت خادمتها الخاصة إجازة على شرط أن تبدأ الفتاة نزهتها "بإحضار الآنسة كلاك". وقد وجدتها في الساعة الحادية عشرة منصرفة إلى تحريك مروحتها وهي في روبها المنزلي.

- عزيزتي دروزلا. إني بحاجة إلى بعض الخدم، وأنت حاذقة جدًا فأرجو منك أن تأتيني بهم.

- وأين قائمة الخدم الذين تحتاجين إليهم؟

- القائمة مع راشيل يا عزيزتي في الحجرة الأخرى!

فتوجهت إلى الحجرة الأخرى، ورأيت راشيل لأول مرة منذ افترقنا في ميدان مونتاجو. وكانت تبدو هزيلة قصيرة بصورة محزنة في حدادها الصارم العميق. ولدهشتي الشديدة نهضت عندما دخلت الحجرة وتقدمت لملاقاتي بيد ممدودة قائلة:

- إني سعيدة برؤيتك يا دروزلا. وقد كنت أكثر من مخاطبتك في حماقة وغلظة. فأرجو أن تسامحيني. ففي حياة والدتي المسكينة لم يكن أصدقاؤهما على الدوام هم أصدقائي. أما وقد فقدتها الآن، فقلبي يتجه لالتماس الراحة إلى من كانت تحبهم. وقد كانت تحبك. فحاولي أن تكوني صديقة لي يا دروزلا!

- وبعد أن رددت على خطوتها هذه بكل مودة ممكنة، جلست بجوارها على

الأريكة بناء على رغبتها. وتحدثنا في شئون الأسرة وخطط المستقبل، اللهم إلا خطة المستقبل التي سوف تنتهي بزواجها. وبرغم محاولاتي مناقشة هذه النقطة، كانت تتغابى عن التلميح! وأخيرًا عدت إلى موضع الحدم المطلوبين للبيت المفروش، وسألتها: "وأين القائمة يا عزيزتي"؟ فقدمتها إليّ.

وسألتها: " هل عثرتم على البيت المنشود في برايتون"؟

فقالت: "أجل! لقد استأجره جودفري"!

- حسنًا جدًا! سأذهب إلى برايتون غدًا!

- إنه لكرم عظيم منك! وسنلحق بك عقب إعدادك كل شيء لحضورنا. وأرجو أن تمكثي معنا، ضيفة عليّ أنا!

وكنا في متصف الأسبوع. فما جاء عصر يوم السبت حتى كان البيت قد تم إعداده لهن. ووصلنا فيما بين السادسة والسابعة. ولكن كانت دهشتي عظيمة لأن الذي صحبهن لم يكن المستر جودفري كما كنت أتوقع، بل المستر براف المحامي!

وسألني: "كيف حالك يا أنسة كلاك"؟ بينما قالت السيدة إبلوايت: "إن جودفري ساءه كثيرًا يا روزلا أنه لم يستطع الحضور معنا. ولكن شيئًا عاقه واحتجزه في المدينة. فعرض المستر براف أن يحل محله ويقضي هنا العطلة إلى صباح الاثنين"!

ووقفت راشيل صامتة منفردة بنفسها بجوار نافذة، وقد ثبتت عينيها في البحر، فسألتها: "هل تحسين تعبًا يا حبيبتي"؟ فأجابتني قائلة:

- كلا! ولكني منقبضة الصدر قليلًا لأني طالما رأيت البحر في يوركشاير وقد انعكس عليه مثل هذا الضوء. وقد جعلني هذا أفكر في الأيام التي لن تعود!

وبقي المستر براف للعشاء، وكان يبدو عليه الارتياح، فجعل يتحدث ويثرثر على عادته في الثرثرة الإلحادية إلى أن حان وقت انصرافه، فدعا نفسه للغداء في اليوم التالي، ثم مضى إلى فندقه!

واستحال علينا في الصباح التالي أن نحمل السيدة إيبلوايت على الخروج من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الروب المنزلي في الموعد المناسب للذهاب إلى الكنيسة. أما كريمتها العليلة وهي في رأيي لا تشكو شيئًا سوى الكسل كأمها، فذكرت أنها تنوي قضاء سحابة اليوم في الفراش، فتوجهت إلى الكنيسة مع راشيل وحدنا. ولما خرجنا من الكنيسة قلت لها:

- هل وجدت الصلاة طريقها إلى قلبك يا عزيزتي؟

- كلا! بل وجدت طريقها إلى رأسي فصدعته!

ووجدنا السيدة إيبلوايت والمستر براف على مائدة الغداء. وعندما رفضت راشيل أن تتناول شيئًا محتجة بالصداع، اغتنم المحامي هذه الفرصة التي أتاحتها له، فقال ذلك الشيخ البشع:

- ما من دواء ناجع للصداع كالمشي يا آنسة راشيل، فهو الذي يشفيك منه. وأنا في خدمتك إذا شرفتني بتناول ذراعي!

- بكل سرور فالمشي هو ما كنت أصبو إليه!

فقلت أنا: "إن الساعة تجاوزت الثانية، وإن قداس بعد الظهر يبدأ في الساعة الثالثة".

فقالت لي: "كيف تتوقعين مني أن أذهب ثانية إلى الكنيسة وبي مثل هذا الصداع"؟

وفتح مستر براف الباب لها، وفي دقيقة واحدة كانا قد خرجا معًا من البيت. وعند
Telegram:@mbooks90
عودتي من قداس بعد الظهر وجدت أنهما كانا قد عادا لتوهما. ولم أرَ راشيل في حياتي بهذا الصمت والتفكير. ولم أرَ مستر براف في حياتي يغدق عليها مثل هذه الرعاية، أو ينظر إليها بمثل هذا الاحترام. ثم تعلل بأنه مرتبط في ذلك اليوم بالعشاء في مكان ما، واستأذن منا جميعًا في الانصراف مبكرًا، لأن في نيته العودة في الصباح التالي إلى لندن بأول قطار. وقال لراشيل عند الباب:

- أواثقة أنت من قرارك؟

- كل الثقة!

وهكذا افترقا. وما انصرف المحامي حتى ذهبت راشيل إلى حجرتها، ولم تظهر ساعة العشاء بل هبطت خادمتها الخاصة لتقول: "إن الصداع عاودها". فذهبت إليها وعرضت عليها مختلف الخدمات الأخوية من خلال الباب الذي كانت قد أغلقته من الداخل. فلما أدخل إليها في الصباح فنجان شايها دخلت في أعقابه وقلت لها:

- أتدرين يا حبيبتي أنه خطرت لي بالأمس فكرة غريبة عن المستر براف؟ خطر لي عندما رأيتك بعد نزهتك معه أنه أبلغك أخبارًا سيئة!

فحملقت فيّ بعينيها السوداوين الوحشيتين وقالت:

- كلا! بل كانت أنباء يهمني سماعها. وإني شاكرة جدًا للمستر براف إبلاغها إليّ!

- أخبار كان يهمك جدًا سماعها؟ أظن يا عزيزتي راشيل أنها عن المستر جودفري؟

فنهضت جالسة، وشحب لونها جدًا، ثم وضعت رأسها ثانية على الوسادة وفكرت دقيقة، وبعد ذلك أجابتني بهذه الكلمات الغريبة:

- سوف لا أتزوج المستر جودفري إيبلوايت بأي حال!

- ماذا يمكن أن تقصدي؟ إن هذا الزواج تعتبره الأسرة كلها أمرًا مقضيًا!

- إن حضور المستر إيبلوايت اليوم أمر منتظر. فانتظري وسترين!

ودقت الجرس المثبت عند رأس سريرها، فحضرت الفتاة ذات الشرائط:

- حمامي يا بنيلوبي!

وخيل إليّ وأنا في حالتي الوجدانية تلك أنها لجأت إلى الوسيلة الوحيدة لإرغامي على مغادرة الحجرة. وبعد الإفطار اكتشفت بطريقتي الخاصة الساعة التي ينتظر فيها حضور المستر جودفري إيبلوايت، ثم خرجت لزيارة صديقتين من أهل الجد تقطنان برايتون. حتى إذا شعرت بالانتعاش عدت أدراجي إلى البيت في الوقت المناسب لانتظار وصول الزائر المنتظر. فلما دخلت قاعة الطعام التي تكون خالية باستمرار في هذا الوقت من النهار وجدت نفسي وجهًا لوجه أمام المستر جودفري إيبلوايت الذي تقدم نحوي بشوق شديد وقال لي:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- عزيزتي الآنسة كلاك. لقد كنت أشوق ما أكون لرؤيتك، فقد استطعت التحرر من مواعيدي في لندن ومهامي قبل الزمن الذي قدرته من قبل!

- هل رأيت الآنسة راشيل؟

فتنهد بلطف وتناول يدي ثم قال بهدوء:

- نعم قابلت راشيل! وأنت تعلمين يا صديقتي العزيزة أنها كانت مخطوبة لي. إذن فاعلمي أنها قررت بغتة فسخ الخطبة!

فقلت له وأنا في شبه حلم: "ما معنى هذا"؟

- اسمحي لي بأن أقول لك ما هو معناه. ولكن ألا نجلس؟

وقدم لي مقعدًا. وإني أذكر الآن أنه كان ودودًا جدًا، ولا أعتقد أنه طوق خصري بذراعه كي يسندني. ولكني واثقة تمامًا بأنه لم يفعل. ومهما يكن من أمر فقد جلسنا. فإني واثقة من ذلك، وإن كنت غير واثقة من أي شيء عداه!

وبدأ المستر جودفري كلامه قائلًا:

- لقد فقدت الآن فتاة جميلة، ومكانة اجتماعية مرموقة، وايرادًا طيبًا، وقد استسلمت لتلك الخسارة بغير مقاومة. فما الذي جعلني أفعل ذلك؟ لست أدري لماذا طلبت يد الآنسة فيرندر؟ ولست أدري لماذا أهملت سيداتي العزيزات؟ ولست أدري لماذا هجرت جمعية ملابس الأم. فيا أعز الصديقات خبريني: لماذا جاء وقت بدأت هذه الخطبة التي عقدتها تبدو لي وكأنها عمل أقدمت عليه في أحلام المنام؟ ولماذا أحسست بغتة أن سعادتي الحقيقية في مساعدة سيداتي العزيزات؟ عندي مكانة اجتماعية، فما حاجتي إلى إيراد ضخم؟ إن في مقدوري أن أقوم بنفقات خبزي وجبني ومسكني اللطيف الصغير والبذلتين اللتين أحتاج إليهما كل سنة. فماذا يحوجني إلى الآنسة فيرندر؟ لقد قالت بفمها - وهذا كلام بيني وبينك - إنها تحب رجلًا آخر. وإن هدفها في الزواج مني كان محاولة إقصاء ذلك الرجل من قلبها. فما كان أبشعه من زواج لو أنه تم! لقد كانت هذه أفكاري وخواطري يا آنسة كلاك وأنا

في طريقي إلى برايتون. ثم اقتربت من راشيل، وأنا أشعر بشعور المجرم وهو يتهيأ لتلقي الحكم عليه. فلمّا وجدت أنها غيرت رأيها أيضًا، شعرت بارتياح عظيم. لقد كان ذلك الزواج مستحيلًا، كان شيئًا لا يمكن أن يكون. وهذه هي الوقائع!

وقد تأثرت تأثرًا شديدًا بما قال، فكلمته كلامًا موجزًا بسيطًا أخويًا، فرح به كثيرًا، بل بلغ من شدة فرحه أن رفع يدي إلى شفتيه، وأطبقت عيني. ولا شك أنني كنت حرية أن يغمى عليّ عندما ردني إلى رشدي صوت من العالم الخارجي، صوت بشع صادر عن سكاكين وشوك خارج الباب، ثم دخل الحاجب ليعد المائدة للغداء. فوثب المسترد جودفري قائمًا ونظر إلى الساعة ثم قال:

- يا الله! كم يطير الوقت طيرانًا وأنا معك! لقد أوشك القطار أن يفوتني!

فسألته فيم عجلته هذه للعودة إلى المدينة؟

فقال: "بلغني من والدي أنه سيغادر فريزنجهول إلى لندن اليوم. وقد قرر الحضور إلى هنا الليلة أو غدًا. ويجب أن أخبره بما حدث بيني وبين راشيل. فقلبه متعلق بهذه الزيجة. وستكون هناك صعوبة كبيرة فيما أخشى في حمله على الموافقة على فسخ الخطبة. وسوف نلتقي مرة أخرى يا خير الصديقات وأعزهن!

وأسرع بالانصراف، فأسرعت أنا بالصعود لأهدئ أعصابي في حجرتي قبل أن ألتقي بالسيدة إيبلوايت وراشيل على مائدة الغداء. ثم نزلت للغداء وأنا بطبيعة الحال متلهفة على رؤية راشيل وكيف يكون سلوكها بعد تنصلها من خطبتها. وخيل إليّ أن تحررها قد دفعها إلى التفكير ثانية في ذلك الرجل الآخر الذي أحبته. فمن ذلك الرجل؟

كانت عندي ظنوني الخاصة. ولكن لم تكن بي حاجة لتضييع الوقت في التخمين الفارغ.

وكانت السيدة إيبلوايت تجري تمريناتها بعد الظهر في مقعد من مقاعد المرضى، وذهبت معها راشيل. التي انفجرت قائلة:

- كم أتمنى لو جذبت المقعد! وكم أتمنى لو أنهكت نفسي إلى أن أسقط إعياء!

ولم يحضر المستر إيبلوايت تلك الليلة. ولكني كنت أعرف الأهمية التي يعلقها طمعه على زواج ابنه من الآنسة فيرندر، فكنت واثقة بأننا سنراه في اليوم التالي!

وفي اليوم التالي حدث ما توقعته، وكانت دهشة السيدة إيبلوايت بحضور زوجها المباغت عظيمة. ثم عظمت دهشتي أنا لما رأيت المستر براف داخلًا في أعقابه، وقال إيبلوايت له:

- هذه مفاجأة لطيفة يا سيدي! فإنني عندما غادرت مكتبك بالأمس لم أكن أتوقع شرف رؤيتك اليوم في برايتون!

- لقد راجعت في ذهني محادثتنا بعد أن انصرفت، فبدا لي أنني ربما كنت ذا نفع في هذا الظرف. ولحقت بالقطار في آخر وقت!

ثم جلس المحامي إلى جانب راشيل، وجلست أنا بهدوء في ركن. وقد جعلت في حجري طائفة من المنشورات فقد يحتاج إليها الأمر. أما السيدة إيبلوايت فجلست بجوار النافذة تجلب الهواء لوجهها وقد غدت على عادتها بمروحتها في هدوء. ووقف المستر إيبلوايت في وسط الحجرة وقد غدت صلعته أشد احمرارًا مما عهدتها، ثم شرع يتكلم مخاطبًا راشيل بمودة شديدة، قائلًا لها:

- يا عزيزتي راشيل. لقد سمعت نبأ غريبًا جدًا من جودفري. وقد حضرت الآن لأتحقق منه. ولديك في هذا البيت حجرة جلوس خاصة بك. فهل توليني شرف مصاحبتي إلى هناك؟

فلم تتحرك راشيل وأجابته قائلة:

- أيًا كان ما تريد أن تقوله لي فهو يمكن أن يقال هنا، بحضور أقاربي.

ونظرت إلى المستر براف وقالت: "وبحضور صديق والدتي القديم وموضع ثقتها"!

فأجابها المستر إيبلوايت بلطف وهو يجلس:

- كما تشائين يا عزيزتي. فمنذ بضعة أسابيع أبلغني ابني أن الآنسة فيرندر قد أولته شرف ارتباطها بالزواج منه. فهل يجوز يا عزيزتي راشيل أنه أساء فهم حقيقة ما

قلته له عندئذ؟

- كلا. فقد ربطت نفسي بخطبته!

- آه. بدأت الآن أتبين الأمر. إذن تخاصمتما كما يتخاصم العشاق؟

- أفضل من هذا أن يفهم كل واحد منا الآخر يا مستر إيبلوايت بوضوح أنه لم ينشب أي خصام بين نجلك وبيني. وقد تقرر بصفة نهائية بيني وبين نجلك أن نبقى ما عشنا ابني خالة لا أكثر. هل هذا كلام واضح؟

- هل أفهم إذن أن خطبتكما فسخت، وأن ذلك تم بناء على رغبتك أنت؟

- نعم تم بناء على رغبتي أنا. ووافق ابنك على ذلك!

فصرخ الشيخ وقد ثار غضبه:

- إنصافًا لنفسي بصفتي والده أحب أن أسألك يا آنسة فيرندر ما الذي أسخطك على المستر جودفري إيبلوايت؟

وهنا تدخل المستر براف للمرة الأولى قائلًا لراشيل:

- لستِ ملزمة بالإجابة عن هذا السؤال!

فشكرته راشيل على خدمته هذه لها، ثم التفتت إلى المستر إيبلوايت الكبير، وقالت بهدوء فظيع:

- لقد اقترحت أن نتحرر من هذه الخطبة لأنني كنت واثقة بأن ذلك في مصلحة كلينا! وهذا هو التبرير الوحيد الذي أرى من الضروري تقديمه إليك أو إليه!

فنهض مستر إيبلوايت واقفًا على قدميه ودفع مقعده بعنف فوقع على الأرض وقال:

- إن لم يشعر ابني بوقع هذه الإهانة، فأنا أشعر بها. فأنا أعلم السبب الذي حدا بك يا آنسة فيرندر إلى الحنث بوعدك لولدي. وهو أنني لست من أصل عريق. ولم أكن كفؤًا لآل هيرنكاسل عندما تزوجت منكم. والآن لا ترين ابني كفؤًا لك!

فقالت راشيل في ازدراء:

- إن كان هو يظن ذلك، فلندعه يظن ما شاء!

فتغير لون مستر إيبلوايت من الأحمر إلى القرمزي، ولهثت أنفاسه وجعل ينقل النظر ما بين راشيل والمستر براف في هياج، حتى بدأت زوجته تنزعج وحاولت تهدئته. وكنت أنا أثناء هذه المناقشة المؤسفة أشعر بأكثر من دافع للتدخل، غير أنني منعت نفسي خوفًا من النتائج. ولكن عندما بلغت الأمور هذا المبلغ وقفت في ركن متواضع وفتحت كتابي الثمين وفتحت فمي قائلة:

- يا مستر إيبلوايت. اسمح لي بأن أتجاسر فأحاول إراحة بالك!

ثم وضعت الكتاب أمام عينيه قائلة:

- إن عنوان الكتاب: "كلمات معزية تفيض حكمة وحبًا".

وقدمت إليه الكتاب فمزقه وقذفني به عبر المائدة. فنهض الجميع مذعورين، وهم لا يدرون ماذا سيحدث بعد ذلك. فجلست في ركني كما كنت. أما هو فقال وهو يغلي متلعثمًا من شدة الغضب:

- من.. من.. من دعا هذه المرأة إلى البيت؟ أهو أنت؟

وقبل أن تجيبه السيدة إيبلوايت أجابت راشيل بالنيابة عنها قائلة:

- إن الآنسة كلاك هنا ضيفة عليّ أنا!

فكان لهذه الكلمات وقع غريب على المستر إيبلوايت. وكان واضحًا لكل ذي عينين أن راشيل قالت شيئًا جعل له اليد العليا عليها أخيرًا، إذ قال لها:

- ماذا؟ الآنسة كلاك هنا ضيفه عليك أنت، وفي بيتي أنا؟

وفي هذه المرة أفلت زمام راشيل من يدها فالتفتت إلى المستر براف مشيرة بإصبعها إلى المستر إيبلوايت، وقالت بأنفة:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ماذا يعني؟

فتدخل المستر براف ثانية موجهًا الكلام إلى المستر إيبلوايت:

- يبدو أنك نسيت أنك استأجرت هذا البيت بوصفك وصيًا على الآنسة فيرندر، ولاستعمالها الخاص!

- أحب أن تعلم يا سيدي أنه ما لم يكن ابني كفؤًا للزواج من الآنسة فيرندر، فلا أستطيع أن أعتبر والده كفؤًا للوصاية على الآنسة فيرندر. ولهذا أرفض قبول المهمة التي عرضت عليّ بمقتضى وصية الليدي فيرندر. وقد استؤجر هذا البيت باسمي. فهو بيتي وأستطيع أن أحتفظ به أو أتركه كما أشاء. ولا أريد أن أتعجل الآنسة فيرندر، بل أرجو منها أن تنقل من هنا ضيفتها وحقائبها في الوقت الذي يناسبها!

ثم انحنى انحناء عميقًا وغادر الحجرة. ولما أغلق الباب قامت زوجته، فعبرت الحجرة وقد واتتها الهمة أخيرًا، وتناولت يد راشيل وقالت لها:

- كنت حرية أن أخجل من زوجي لو لم أعلم أن غضبه هو الذي نطق لا هو!

ثم التفتت نحوي في موضعي من الركن وقالت لي:

- إنك أنت التي أغضبته. وأرجو ألا أراك بعد اليوم لا أنت ولا منشوراتك!

ثم قبلت راشيل وقالت لها:

- إني أعتذر إليك يا عزيزتي باسم زوجي. ماذا أستطيع أن أصنع لك؟

وعلى عهد راشيل من الشذوذ في كل شيء انهمرت دموعها، وردت قبلات خالتها بمثلها في صمت. فقال المستر براف:

- إن جاز لي أن أجيب عن الآنسة فيرندر، فإني أطلب منك يا سيدة إيبلوايت أن تبعثي إلينا مع بنيلوبي بقبعة سيدتها ووشاحها. واتركينا معًا عشر دقائق.

وبصوت خافت استطرد قائلًا: "سأسوي الأمور بما يرضيك ويرضي راشيل"!

فغادرت السيدة إيبلوايت الحجرة دون أن تنطق بكلمة. فعلق مستر براف قائلًا:

- آه! إن لسلالة هيرنكاسل سقطاتها. ولكن الأرومة الطيبة على شيء مهما كان!

وأخذ راشيل إلى مقعد بجوار النافذة، وتحدث إليها هناك قائلًا:

- يا عزيزتي.. لقد أذهلك تصرف مستر إيبلوايت الذي عينته والدتك وصيًا عليك لثقتها فيه، ولأنها ظنت ذلك يسر أختها. أما أنا شخصيًا فلم أحبب المستر إيبلوايت قط. وأقنعت والدتك بالسماح لي بإضافة بند إلى الوصية يعين بمقتضاه وصي جديد في الظروف المعينة. وقد حدث اليوم ظرف من هذه الظروف. وإني أحمل إليك رسالة من زوجتي. فهل تشرفين السيدة براف بالنزول ضيفة عليها، إلى أن نقرر الخطوة التالية بأناة وروية بعد التشاور فيما بيننا شأن العقلاء؟

وعندئذ هممت أن أتدخل. ولكن قبل أن أنطق كانت راشيل قد قبلت دعوته بكل حرارة!

ولو أنني سمحت بذلك إذن فقد قضى على آمالي في رد النعجة الضالة إلى الحظيرة، فقلت:

- قف يا مستر براف! إنك لست قريبها مثلي. أنا أدعوها إلى بيتي. وعينوني أنا وصية. إنني يا عزيزتي راشيل أقدم لك بيتي المتواضع فتعالي إلى لندن يا حبيبتي بأول قطار وشاركيني إياه!

ولم يقل المستر براف شيئًا. أما راشيل فنظرت إليّ بدهشة قاسية لم تحاول إخفاءها وقالت لي:

- هذا كرم منك عظيم يا دروزلا! وسوف يطيب لي أن أزورك كلما توجهت إلى لندن. ولكني أعتقد أن من الخير في الوقت الحاضر أن أبقى في رعاية المستر براف!

- لا تقولي هذا! فأنا لا أستطيع أن أفارقك يا راشيل!

وحاولت أن أحتضنها بين ذراعيّ. ولكنها تراجعت، فانفجرت قائلة:

- راشيل! راشيل! ألم تتبيني حتى الآن أن قلبي متشوق أن يجعل منك مسيحية حقيقية؟ ألم يهتف بك صوت داخلي يخبرك بما كنت أحاول أن أصنعه لوالدتك

العزيزة عندما اختطفها الموت من بين يدي؟

فنظرت إليّ راشيل باستغراب شديد وقالت:

- لست أفهم إشارتك هذه إلى والدتي. فهل لك يا آنسة كلاك في الإيضاح؟

وقبل أن أجيب تقدم براف محاولًا الخروج براشيل من الحجرة، فدفعته بيدي مستنكرة، وببيان مهيب شرحت لها بشاعة ملاقاة الموت على غير استعداد، فصرخت راشيل صرخة رعب وهي تتراجع عني، وقالت للمستر براف:

- فلنخرج قبل أن تقول هذه المرأة شيئًا آخر. تصور حياة أمي المسكينة الوديعة، تلك الحياة النافعة الجميلة! لقد كنت في الجنازة يا مستر براف ورأيت كيف كان الجميع يحبونها! وهذه المنكودة تقف هنا الآن وتحاول تشكيكي في أمي التي كانت ملاكًا على الأرض! لا تكلمها! فإنه يفزعني أن أشعر بأننا وهي في حجرة واحدة!

وجرت نحو الباب وقد أصمت أذنيها عن كل كلام، وغدوت وحدي في الحجرة.

ترى هل هناك ما يضاف إلى هذه الصورة لاضطهاد العالم للمسيحية الحقة؟ ولم أرَ راشيل فيرندر بعد ذلك، وغفرت لها إهانتها في حينها، ودعوت لها بالخير بعد ذلك. وعندما أموت سأورثها بمقتضى وصيتي جميع منشوراتي، إتمامًا مني لخطتي في مجازاة الإساءة بالإحسان!

الرواية الثانية

أوردها ماتيو براف المحامي

الجولة الثالثة

أما وقد وضعت صديقتي المنصفة الآنسة كلاك القلم، فهناك سببان يدفعان بي إلى تناوله بعدها. فأنا أولًا في موقف يمكنني من إلقاء الضوء على بعض النقط. لأنني كنت من وراء إقدام الآنسة فيرندر على فسخ خطبتها، لما تراءى لها من الأسباب، كما أن المستر جودفري إيبلوايت كان لديه سبب يدفعه للتخلي عن يد بنت خالته الحسناء. وقد اكتشفت أنا هذا السبب. كما أنني وجدت نفسي ثانيًا داخلًا - لحسن حظي أو لسوئه - في لغز الماسة الهندية. فقد تشرفت بالاجتماع بغريب شرقي كان هو ولا شك زعيم الهنود الثلاثة. فضلًا عن أنني قابلت الرحالة المشهور مستر ميرثويت في اليوم التالي، وتحدثت معه في شأن جوهرة القمر حديثًا له أثر عظيم في الحوادث التالية.

فالقصة الحقيقية للخطبة المفسوخة يجب الخوض فيها أولًا في مفتتح هذه الرواية. فلو عدنا إلى مبدأ التسلسل في الوقائع لتحتم علينا الرجوع إلى فراش مرض عميلي وصديقي الممتاز المرحوم السير جون فيرندر، فإنه لما وجد نفسه مريضًا ذلك المرض الذي انتهى به إلى القبر، بعث في طلبي لأتلقى وصيته وكان السير جون مهدمًا عندما دخلت الحجرة. وفي عشر دقائق كانت الوصية قد كتبت ووقعت. وقد ترك كل شيء لليدي فيرندر.

وفي الأيام الأولى من ترمل الليدي فيرندر، أرسلت في طلبي وكتبت وصيتها. وبهذا قبل أن يتم السير جون أسبوعين في قبره كان مستقبل ابنته قد ضمن بكل حكمة ومحبة. وظلت الوصية في الخزانة المضادة للحريق بمكتبه. ولم أعد للنظر فيها إلا في صيف ١٨٤٨ تحت ضغط ظروف سيئة جدًا. ففي ذلك التاريخ المشار إليه قرر الأطباء ما يعتبر حكمًا بإعدام الليدي فيرندر المسكينة. وكنت أول من أخبرته بذلك، ووجدتها متلهفة على مراجعة وصيتها معي. ولم يكن من الممكن تحسين

ما رتبته لابنتها. ولكن في الوقت نفسه كانت رغباتها تجاه بعض الهبات الصغيرة لأقاربها قد تغيرت، فصار من اللازم إضافة بعض التعديلات إلى الوصية الأصلية. وبعد الفراغ من ذلك استأذنتها في عمل وصية جديدة. وكان توقيع هذه الوصية الجديدة هو الذي أوردت الآنسة كلاك وصفه، وقد تكرمت بالشهادة عليها. وكانت التغييرات الوحيدة بشأن الآنسة راشيل فيرندر تتعلق بتعيين الوصي. وبعد وفاة الليدي فيرندر وضعت الوصية بين يدي الموثق لإقرارها حسب المتبع. وبعد نحو ثلاثة أسابيع فيما أذكر بلغني أول نذير بأن شيئًا غير مألوف يجري في الخفاء. فقد اتفق مروري بمكتب صديقي الموثق فقال لي:

- عندي لك أخبار. فقد طلبت وصية الليدي فيرندر لفحصها!

وكانت هذه أخبار غريبة حقًا. إذ لم يكن في الوصية أي شيء إطلاقًا يمكن أن يكون محل نزاع. كما أنني لا أظن أن هناك أي إنسان يمكن أن تكون له أقل مصلحة في فحصها. وسألته: "هل عرفت من الذي طلب الوصية للفحص"؟

- المستر سمالي. مكتب سكب وسمالي هو الذي طلبها.

وصرح لي المستر سمالي باسم العميل. فإذا هو مستر جودفري إيبلوايت وكان ذلك حسبي!

وكان لراشيل حق الانتفاع مدى حياتها بإيراد الضيعة، والممتلكات. فلا حق لها هي أو زوجها - إن تزوجت - في اقتراض نصف شلن على الضيعة أو على الأموال المنقولة.

ولم يكن قد انقضى سوى أسبوع منذ سمعت مع مزيد الدهشة والأسف بمشروع زواج الآنسة فيرندر. وكنت أكن لها أعظم الإعجاب والمحبة. فأحزنني كثيرًا أن أسمع برغبتها في تسليم زمامها للمستر جودفري إيبلوايت.

ولم أحب أن أحزن قلب الآنسة راشيل في الأيام الأولى لحدادها على أمها بإطلاعها على الحقيقة. ثم توجهت إلى فندق في لندن كنت أعلم أن السيدة إيبلوايت والآنسة فيرندر نازلتان فيه، فأخبرتاني أنهما ستذهبان في اليوم التالي

إلى برايتون، وأن المستر جودفري إيبلوايت سوف لا يتمكن من مرافقتهما، فعرضت عليهما أن أحل محله.

كنت قد عزمت مهما تكن النتيجة على إخبارها بالحقيقة، وقد وجدت فرصتي وأنا أتمشى معها على انفراد في اليوم التالي لوصولي، فقالت لي:

- إني مدينة لعطفك! وإذا سمعت أي حديث عن زواجي عند عودتك إلى لندن فكذبه فورًا!

- هل أنتِ عازمة على فسخ خطبتك؟

- لا شك في هذا، بعد الذي أخبرتني به! وسأقول له إنني فكرت في الأمر واقتنعت بأنه خير لكلينا أن نفترق!

وحملتها على أن تعدني بالكتابة إليّ إذا حدث ما يوجب ذلك، ثم عدت إلى عملي في لندن وأنا أشعر بقلق شديد عليها.

وفي مساء عودتي فوجئت بزيارة من المستر إيبلوايت الكبير، وأخبرني بأن المستر جودفري تلقي رفض الخطبة، وأنه قبله في ذلك اليوم نفسه، ولا شك طبعًا في أنه كان بحاجة إلى مبلغ كبير من المال في وقت محدد، وأن إيراد راشيل الخاص لا يسعفه به!

وكان المستر إيبلوايت يريد أن أوضح له سلوك الآنسة فيرندر الشاذ، ولا حاجة بي للقول بأنه لم يكن في استطاعتي تزويده بالمعلومات المطلوبة، وقد أقنعتني نظراته ولهجته بأن الآنسة فيرندر ستجد فيه رجلًا قاسيًا في المناقشة عندما يتوجه إلى برايتون في اليوم التالي!

وقضيت ليلة قلقة أفكر فيما ينبغي أن أفعل بعد ذلك، أما الذي حدث بعد ذلك وكيف تحقق سوء ظني بالمستر إيبلوايت، فتلك معلومات قيل لي إن الآنسة كلاك، تلك الشخصية النموذجية، قد بينتها ووضعتها بأناقتها في نصابها. ويبقى أن أذكر أن الآنسة فيرندر وجدت الهدوء والراحة التي كانت بحاجة إليهما في بيتي بهامبستد.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقد شرفتنا بإقامة طويلة، وسرت بها زوجتي وبناتي كثيرًا، بعد نحو أسبوع، أو عشرة أيام، من مغادرة الآنسة فيرندر لنا دخل أحد كتبتي الحجرة الخاصة في مكتبي وفي يده بطاقة، وأخبرني بأن سيدًا بالطابق الأسفل يريد التحدث إليّ، فنظرت في البطاقة فإذا بها اسم أجنبي ومن تحته كتب بالإنجليزية: "بتزكية من المستر سبنيمسوس لوكر".

والواقع أن جرأة شخص في مركز المستر لوكر في الادعاء بأن له الحق في تزكية أي شخص لديّ أنا قد أدهشتني، فبقيت لحظة لا أستطيع الكلام، وأتساءل: هل خدعتني عيناي؟ فلما لاحظ الكاتب دهشتي قال لي:

- إن الزائر رجل شديد السمرة حتى أننا جميعًا حسبناه هنديًا!

فجعلتني هذه العبارة أظن أن "جوهرة القمر" قد تكون وراء تزكية المستر لوكر وزيارة هذا الغريب لمكتبي!

ودهش الكاتب لرغبتي في مقابلة الزائر فورًا، وما كاد هذا يدخل المكتب حتى شعرت بأنني أمام أحد الهنود الثلاثة، وربما كان هو السارق!

وأشرت إلى مقعد ليجلس عليه، راجيًا أن يخبرني عن قصده، فبدأ حديثه بالاعتذار عن جرأته في إزعاجي، ثم أخرج لفافة صغيرة في قطعة من الحرير وكشفها عن صندوق صغير رائع الجمال مُرصع بالجواهر، وضعه على مكتبي وقال: "جئتك يا سيدي آملًا أن تقرضني بعض المال، وسأترك هذا ضمانًا بالوفاء".

- يؤسفني أنك أتعبت نفسك بالحضور إليّ، وقد أخطأ المستر لوكر بإرسالك إلى هنا، فإنني مُؤتمن مثل سائر زملائي على أموال عملائي كي أقرضها، ولكني لا أقرض الغرباء أبدًا، ولا أقرض أبدًا على ضمانات من هذا القبيل!

وبدلًا من أن يحاول كما ينتظر من أي شخص آخر في مكانه أن يثنيني عن مبادئي التي رسمتها لنفسي، وقف وانحنى وتأهب للانصراف قائلًا:

- أتأذن لي في سؤالك سؤالًا واحدًا قبل أن أمضي؟ فلنفرض أنه كان في إمكانك أن تقرضني المال، ففي أي مُدة كان يسمح لي برده إليك؟

- من حقك أن ترد المال إن شئت في مدى سنة من تاريخ تقديمه إليك، فانحنى الهندي مرة أخرى وانصرف فجأة في خفة! وجلست أنا برهة أفكر، واستنتجت أخيرًا إنه كان يهدف إلى غرض خاص من سؤاله الأخير.

وأنه كان مُهتمًا اهتمامًا خاصًا بسماع إجابتي، وأن المقابلة كلها كانت لهذا الغرض، وفيما أنا أبحث عن سبب يُمكن أن يدعو الهندي لهذا السؤال، إذا بخطاب يصل إليّ من المستر سبتيموس لوكر نفسه يطلب تحديد موعد لمقابلتي! فوافقت على مقابلته بمكتبي في اليوم التالي!

وكان المستر لوكر من حيث الأهمية عندي أقل كثيرًا من ذلك الهندي، والواقع أنه لم يكن جديرًا بأن يُشار إليه بالتفصيل في هذه الصفحات.

أما ما أراد قوله لي، فهو يلخص في أن ذلك الهندي زاره قبل يومين، فاعتقد أنه أحد الثلاثة الذين عصبوا عينيه وكمموه وسرقوا منه إيصال للصرف، ولذلك شعر بفزع شديد، بل اعتقد أن ساعته الأخيرة قد دنت!

على أن الهندي ما لبث أن أخرج صندوقًا صغيرًا وطلب إليه ما طلبه مني، ولكي يتخلص منه بمنتهى السرعة فكر في إرساله إليّ، راجيًا أن أتغاضى عن هذا التصرف لأنه كان مشدوهًا من شدة الرعب!

وسألته: "هل قال الهندي شيئًا غير مألوف حينما همّ بمغادرة بيته"؟

فأجاب: "نعم"، وذكر أنه وجه السؤال عينه الذي وجهه إليّ!

ولم أستطع الوصول إلى نتيجة، وكنت مُرتبطًا بالعشاء في تلك الليلة، فصعدت إلى الطابق العلوي وأنا غير مستريح الخاطر، ولم يخطر ببالي أن طريقي إلى حجرة الملابس كان في تلك المناسبة هو نفسه طريق اكتشاف السر!

تبين لي أن الشخصية الرئيسية بين المدعوين إلى حفلة العشاء هو المستر ميرثويت. ولما ترك الرجال وحدهم في حجرة المائدة، وجدت نفسي جالسًا إلى جواره، وغني عن البيان أن الحديث دار حول السياسة، والعادة السائدة عندي أن

حديث السياسة أشد أنواع الحديث إملالًا.

ونظرت نحو المستر ميرثويت بعد أن دارت الراح دورة كاملة حول المائدة، فوجدته على مذهبي في التفكير بشكل ظاهر، لأنه كان يتهيأ للنوم وهو جالس، ففكرت في تجربة، فحواها أن أرى هل يكفي ذكر جوهرة القمر لبقائه مستيقظًا، وإذا كان ذلك كذلك فما رأيه في زيارة ذلك الهندي لمكتبي، وعلى هذا قلت:

- إذا لم تخني الذاكرة يا مستر ميرثويت، فأنت من معارف المرحومة الليدي فيرندر، وكان لك اهتمام بالحوادث الغريبة التي انتهت بضياع جوهرة القمر!

وسرعان ما أفاق الرحالة المشهور، وسألني بعد أن أخبرته بصلتي المهنية بآل هيرنكاسل: "هل سمعت أخيرًا بشيء عن الهنود"؟

فأجبته بأن لديّ جميع الأسباب للاعتقاد بأن أحدهم حضر إلى مكتبي لمقابلتي أمس.

ولم يكن المستر ميرثويت رجلًا تسهل إثارة دهشته، غير أن إجابتي أدهشته دهشة تامة، ثم وصفت له ما حدث للمستر لوكر، وما حدث لي، وأضفت قائلًا:

- من الواضح أن السؤال الذي ألقاه الهندي لحظة انصرافه له هدف!

- وهل من المُمكن ألا تكون قد أدركت ذلك الداعي يا مستر براف؟

- إني في أشد الخجل من غباوتي يا مستر ميرثويت، ولكني لم أفهمه!

- إذن أسألك سؤالًا واحدًا: عند أي مرحلة توقفت المؤامرة الهندية للاستيلاء على جوهرة القمر؟

- لا أستطيع أن أقول أين توقفت، فالواقع أنني لا علم لي بشيء عنها!

- إن المؤامرة الهندية يا مستر براف بدأت مُنذ وفاة الكولونيل هيرنكاسل، إذ أتاحت الفرصة الأولى للهنود، وحتى ذلك الوقت كانت جوهرة القمر بمنجاة منهم في خزانة البنك، وأنت حررت بنفسك وصية الكولونيل التي ترك بمقتضاها الجوهرة لابنة أخته.

وقد تم إقرار الوصية على حسب الأصول، ولا شك أنهم حصلوا على نسخة منها عرفوا منها أن جوهرة القمر انتقلت إلى ابنة الليدي فيرندر، وأن المستر بليك الكبير أو من ينديه لذلك هو الذي سيضع الجوهرة بين يديها.

وكانت المشكلة أمام الهنود هي اختيار لحظة الهجوم، وهل تكون أثناء سحب الماسة من المصرف، أم ينتظرون إلى أن تصل إلى بيت الليدي فيرندر في يورك شاير.

ولا شك أن الطريقة الثانية أضمن، وهذا هو تعليل وجود الهنود الثلاثة في فريزنجهول، متخفين في هيئة مُشعوذين.

ولا حاجة إلى القول بأنهم استطاعوا تعقب مجرى الأمور في لندن، فعلموا أن المستر فرنكلن بليك ذهب إلى المصرف، وأنه هو الشخص الذي سيزور الليدي فيرندر من أعضاء الأسرة!

وهنا تذكرت أن فرنكلن بليك لاحظ أن شخصًا أسمر كان يقتفي أثره في الشوارع، وأنه لهذا السبب حضر إلى يوركشاير مُبكرًا بضع ساعات، وأنه وضع الماسة في المصرف قبل أن يتمكن الهنود من رؤيته في المنطقة، ثم استطرد المستر ميرثويت قائلًا:

- لا شك أن الهنود كانوا يجهلون ما فعله المستر فرنكلن بليك بالماسة، ولهذا السبب أخطئوا حتى ضبطهم جبريل بتريدج ليلًا يحومون حول الشرفة.

وكانت خطتهم التالية هي الانتظار إلى أن تصبح الماسة في حوزة الآنسة فيرندر بعد بضعة أسابيع، في يوم عيد ميلادها، ولكن اختفاء الماسة تلك الليلة بالذات خيبت آمال الهنود، وتوقف نشاطهم تمامًا بالقبض عليهم فترة من الوقت، ثم سنحت لهم الفرصة ثانية عندما وصل إليهم خطاب من هندي آخر كان يعمل لدى المستر لوكر.

وكان هذا الخطاب مكتوبًا باللغة الهندية، وأعطاني مأمور السجن إياه لأترجمه قبل إطلاق سراحهم، وكان الخطاب غفلًا من التوقيع، ولا يشير إلا إلى شوارع مُعينة

يجب أن يسلكوها، فلما أطلق سراح الهنود ركبوا أول قطار إلى لندن، وكلنا شعرنا بالأسى لأنهم لم يوضعوا تحت المراقبة الخاصة، ولكن بعد أن صرفت الليدي فيرندر الشرطي، لم يتولَ أحد المسألة.

وكان الهنود أحرازًا في الذهاب إلى لندن، فذهبوا إليها حيث ضايقوا المستر لوكر بالتحويم حول بيته في لامبت، ولا بُد أن شخصًا أخذ جوهرة القمر من يوركشاير إلى لندن، ولا بُد أيضًا أن شخصًا قد اقترض عليها مالًا، وإلّا لما صارت في حوزة المستر لوكر، فهل أمكنكم معرفة من هو هذا الشخص؟

- لا علم لي بشيء من ذلك!

- لقد كانت هناك إشاعة حول المستر جود فري إيبلوايت، أليس كذلك؟

فأخبرته بأن المستر جودفري إيبلوايت قد برئ من كل شك، فأجابني بهدوء:

- إذن لنترك للزمن توضيح هذه المسألة، ولنعد إلى أولئك الهنود، لقد طرد المستر لوكر الموظف الهندي من خدمته وحمل جوهرة القمر إلى المصرف، وبهذا ضيع عليهم مرة أخرى فرصة الاستيلاء عليها.

- فهمت! إن الهنود أدركوا كما أدركنا أن جوهرة القمر مرهونة، وهم يريدون أن يعرفوا أول موعد يُمكن أن يفك فيه الرهن، لأنه سيكون أول موعد يُمكن أن تسحب فيه الجوهرة من المصرف.

- بعد عام من تاريخ رهن جوهرة القمر سيتربص الهنود لانتهاز فرصتهم الثالثة، فما هو بالتقريب تاريخ وصول الماسة إلى يد هذا المرابي؟

- ربما كان حوالي أواخر يونيه.

- ونحن الآن في سنة ١٨٤٨ عظيم جدًا، فإذا استطاع الشخص المجهول الذي رهن جوهرة القمر أن يستردها بعد سنة، فستكون الجوهرة في حوزة ذلك الشخص في آخر يونيه سنة ١٨٤٩، وسأكون في ذلك الوقت على بُعد آلاف من الأميال من إنجلترا، ولكن المسألة تستحق منك أنت ترتيب أمورك كي تكون في لندن في ذلك التاريخ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- أتظن أن شيئا خطيرا سيحدث؟

- أعتقد أنني سأكون آمن على نفسي وسط أشد قبائل آسيا الوسطى توحشا مني وأنا أجتاز باب المصرف وجوهرة القمر في جيبي! لقد هزم الهنود مرتين، ولكني أعتقد اعتقادا جازما أنهم لن يهزموا في المرة الثالثة!

وكانت هذه آخر كلماته في الموضوع، فقد جيء بالقهوة، ونهض الضيوف ولحقوا بالسيدات في الطابق العلوي!

وقد سجلت في ذلك اليوم التاريخ الموعود، وأني أختم هذه الرواية مثبتا ما سجلته في مذكرتي:

"يونيه ٤٩.. أنباء منتظرة عن الهنود حول نهاية الشهر.."

وأما وقد فعلت ذلك، فإني أسلم القلم للكاتب الذي سيتلوني في الكتابة!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الرواية الثالثة

أوردها فرنكلن بليك

القميص المفقود

في ربيع سنة ١٨٤٩ كنت أتجول في بلاد الشرق عندما تلقيت من المستر براف المحامي خطابًا مُحاطًا بإطار الحداد، وفيه يخبرني بأن والدي توفي، وآلت ثروته الكبيرة إليّ، ثم يرجو مني ألا أضيع وقتًا في العودة إلى إنجلترا.

وما أشرق الصباح التالي حتى كُنت في الطريق إلى بلادي، وكان سفري إلى الخارج لعلي أنسى راشيل، إن كان التغيير والبُعد يجديان في نسيانها، غير أني لم أنسها مُطلقًا، وكل ما هُناك أن ألم التذكار قد تقل مرارته شيئًا فشيئًا كلما حال بيني وبينها الزمان والمكان والأحداث.

أما وقد أخذت أقترب من الوطن الذي تعيش فيه، فمن المؤكد أن تأثيرها أخذ يسترد سلطانه على نفسي، فحينما غادرت إنجلترا كان اسمها آخر ما جرى به لساني، وعند عودتي إلى إنجلترا كانت أول من سألت عنه حين التقيت بالمستر براف.

وقد أخبرني بكل ما حدث أثناء غيابي، ما عدا شيئًا واحدًا، ذلك أنه لم يشعر في ذلك الحين بأنه يليق به أن يذكر لي لماذا فسخت راشيل وجود فري إيبلوايت خطبتهما، ولم أضيق عليه بالأسئلة المُحرجة في هذا الموضوع الدقيق، وكان حسبي أن أعلم أنها حررت نفسها من ذلك الارتباط.

وعرفت أنها تقيم في رعاية شقيقة أرملة للمرحوم السير جون فيرندر، تُدعى السيدة ميرديو، وبعد سماعي ذلك النبأ بنصف ساعة كُنت في طريقي إلى دار هذه السيدة في ميدان بورتلاند.

ولم يكن الرجل الذي فتح الباب لي مُتأكدًا إن كانت الآنسة فيرندر في البيت أم لا، فأعطيته بطاقتي فصعد ثم هبط وقال لي: "إن الآنسة فيرندر في الخارج"، فتركت كلمة أذكر فيها أنني سأعود في الساعة السادسة.

فلما غدت في الساعة السادسة أبلغني للمرة الثانية أن الآنسة فيرندر ليست في البيت، ولم تترك أي رسالة مع أنها تسلمت بطاقتي كما أكد لي الخادم ذلك، فهل تراها ترفض مقابلتي؟

وكانت فرصتي الأخيرة أن أكتب إليها، فكتبت خطابًا في اليوم التالي بعثت به مع خادمي، وأمرته بأن ينتظر ردًا، وجاءني الرد في جملة واحدة: "الآنسة فيرندر لا ترغب في أي مراسلة بينها وبين المستر فرنكلن بليك"!

ومهما يكن تعلقي بها، فقد أحسست بالإهانة التي تضمنها هذا الرد، وحضر المستر براف ليتحدث إليّ في بعض أعمالي قبل أن أتغلب على هذه الصدمة، فأخبرته بالموضوع كله، وسألته: "هل يمكن أن يكون شعورها نحوي على هذا القدر من المرارة كما كان سابقًا"؟

فبدا الوجوم الشديد على المستر براف، وعندئذ قلت له:

- سأذهب إلى يوركشاير بأول قطار، لأني مُصمم على اكتشاف السر الذي حدا براشيل إلى كراهيتي، وإذا أجدى الزمن والجد والمال، فسأضع يدي على اللص الذي أخذ جوهرة القمر.

فحاول الفحامي الشيخ أن يردني إلى التعقل، ولكني قلت له في إصرار:

- سأستأنف التحقيق من النقطة التي تركته فيها، فهُناك حلقات ناقصة يستطيع جبريل بتريدج أن يكملها، وإلى جبريل بتريدج سأذهب.

وقُرب الغروب، في ذلك المساء بالذات، كُنت واقفًا في تلك الشرفة المعهودة، أتطلع ثانية إلى ذلك البيت الريفي الهادئ العتيق، وكان البُستاني أول شخص رأيته، وقد ترك بتريدج يتشمس في ركنه المعهود بالفناء الخلفي، وكنت أعرفه جيدًا فتوجهت إليه، ودرت حول الممرات المعهودة، ونظرت من خلال بوابة الفناء المفتوحة فإذا به هُناك، ذلك الصديق العزيز القديم مُنذ الأيام السعيدة التي لن تعود، واغرورقت عيناي بالدمع، فانتظرت لحظة ريثما أثق باستطاعتي التحدث إليه.

ونهض الرجل الشيخ على قدميه بصعوبة، وتناول اليد التي مددتها إليه، وقال

وهو يفتح بابًا وراء ظهره:

- ادخل يا مستر فرنكلن وسأسلك فيما بعد ما الذي جاء بك إلى هُنا، فيجب أن تستريح قبل كل شيء، ما أكثر التغيرات المُحزنة مُنذ سافرت إلى الخارج! لقد أُغلِق البيت وذهب الخدم، ولكن ما علينا من هذا، فسأطبخ لك عشاء، وسأُهيئ زوجة البستاني لك فراشًا.

وكان يحزنني أن أُخيب رجاءه، ولكن البيت في الوقت الحاضر بيت راشيل، فهل لي أن أنام وآكل فيه بعد الذي حدث في لندن؟

وتناولت ذراع بتريدج وقدته إلى الحديقة، ولم يكن هُناك بُد من إخباره بالحقيقة، فعزَّ عليه ما حدث لإعزازه كلينا، وقال لي:

- إن للآنسة راشيل أخطاءها، لم أنكر هذا يومًا، ومن ذلك جموحها بين الحين والحين، ولكن يا مستر فرنكلن أما زلت تجهل في سنك هذه طبائع النساء؟ عُد معي إلى البيت.

- إنه مساء جميل، وسأمضي إلى فريزنجهول سيرًا على الأقدام وأنزل بالفندق، ويجب أن تأتي غدًا صباحًا لتفطر معي، فعندي ما أقوله لك.

- إني آسف من كل قلبي لما حدث، ولكن إن كان ولا بُد فلا ضرورة لذهابك الليلة للمبيت في فريزنجهول، ففي مزرعة هوذرستون التي تبعد ميلين من هُنا حجرات للإيجار.

- سأستأجرها إذن يا بتريدج بكل سرور.

وغدنا إلى الفناء حيث كُنت قد تركت حقيبة سفري، فوضع بتريدج عصًا في يدها ثم رفعها فوق كتفه، ولما غادرنا البيت واخترقنا البوابة، قال لي:

- أظنك قلت إن عندك ما تقوله لي يا مستر فرنكلن؟ وما لم يكن سبب حضورك المُفاجئ سرًا فإني مُتلهف على معرفته.

- إنها جوهرة القمر يا بتريدج، فقد أتيت لأصنع ما لم يصنعه أحد بعد، وهو

اكتشاف السارق، فهل تذكر كيف عاملتني راشيل قبل أن أغادر إنجلترا؟ لقد عُدت من أسفاري لأجد شعورها نحوي على حاله، فعلمت أن الماسة من وراء هذه الفعاملة في العام الماضي وفي الوقت الحاضر.

- أتذكر تلك الفتاة المسكينة روزانا سبيرمان؟ لقد كنت تظن أن لديها اعترافات عن جوهرة القمر تُريد أن تدلي بها إليك، فاعلم يا سيدي أن روزانا سبيرمان تركت خطابًا مختومًا مُوجهًا إليك، وهذا الخطاب محفوظ لدى صديقة لها، هي لوسي العرجاء ابنة الصياد في كوبزهول.

فسألته: "لماذا لم يُحول إليّ الخطاب"؟

فقال: "إن لوسي العرجاء عنيدة يا سيدي! ولم تقبل أن تتركه لأحد سواك، وكنت قد غادرت إنجلترا".

- هيا بنا لنحصل عليه فوزًا!

- لقد تأخر الوقت الليلة يا سيدي، وهم ينامون مُبكرًا في كوبزهول، وهذه هي المزرعة يا مستر فرنكلن، فاسترح الليلة وتعال غدًا لنذهب معًا!

ووجدنا زوجة الصياد في مطبخها، فبدأت الحديث بسؤالي عن أنباء لندن، وقبل أن أجيب أتت فتاة رائعة الشعر تعرج قادمة من ركن مظلم نحو المائدة التي كُنت جالسًا إليها، فقالت وهي لا تُحول عينيها عن وجهي:

- يا مستر بتريدج، قل اسمه ثانية من فضلك!

- اسم هذا السيد هو المستر فرنكلن بليك.

فدارت الفتاة على عقبها، وغادرت الحجرة بغتة، وبعد بضع دقائق وقفت بالباب المفتوح وفي يدها خطاب وأشارت إليّ أن أخرج إليها، فاستأذنت وتبعت هذه المخلوقة الغريبة وهي تعرج أمامي بسرعة فوق الشاطئ المُنحدر، وقادتني إلى ما وراء الزوارق بعيدًا عن شكان القرية، ثم وقفت وواجهتني لأول مرة: "قف هُنا فإني أريد أن أنظر إليك"!

- أظن أن معك خطابًا لي، فهل هو هذا الذي بيدك؟

فدفعت الخطاب إلى يدي وهي تقول بغضب:

- خذه! لم تقع عليك عيني من قبل، وأرجو ألا تقع عليك بعد اليوم أبدًا.

ثم أسرعت تعرج مُبتعدة عني بسرعة، فأدركت أنها مجنونة، ثم فضضت الخطاب فوجدت فيه رسالة وقصاصة ورق، أما الرسالة فهي:

"سيدي.. إن كُنت مُتلهفًا على معرفة مغزى سلوكي نحوك أثناء إقامتك في بيت سيدتي الليدي فيرندر، فافعل ما تأمرك به القصاصة المُرفقة بهذا الخطاب، على ألا يكون معك شخص آخر يرى ما تصنع خادمتك المُتواضعة روزانا سبيرمان".

فنظرت في قصاصة الورق، وهذا نصها الحرفي:

"مذكرة - اذهب إلى الرمال المرتعدة عند لحظة ارتداد المد، وامشِ فوق صخرة البصقة الجنوبية إلى المنارة وعامود الراية عند محطة خفر السواحل أمام كوبزهول - ثم ضع فوق الصخور عصًا أو أي أداة مُستقيمة، وبذلك تهدي يدك في خط يقع بالضبط ما بين المنارة وعمود الراية، مع مُراعاة أن يكون أحد طرفي العصا عند حافة الصخور من جهة الرمال، ثم يجب التحسس على طول العصا بين أعشاب البحر إلى أن تعثر بالسلسلة، ثم تحسس بيدك على طول السلسلة إلى أن تصل إلى ذلك الجزء الذي يتدلى على حافة الصخور مُوغلًا في الرمال، وعندئذ اجذب السلسلة".

وما فرغت من قراءة هذه الكلمات حتى سمعت صوت بتريدج من ورائي يقول:

- لم أعد أطيق صبرًا يا مستر فرنكلن، ماذا في الخطاب؟

فمددت إليه يدي بالرسالة والمُذكرة، فصاح بتريدج بعد أن قرأهما يقول:

- لقد قال الجاويش ذلك! قال إن لديها مُذكرة بموضع المخبأ، هذا هو السر الذي حير الناس جميعًا، وقد ظل مستر كاف ينتظرك، إن المد يتراجع بعد ساعة، ونستطيع أن ندور حول الشاطئ ونصل إلى الرمال السريعة من هذا الطريق فنوفر

وقتًا طويلًا!

ووصلنا إلى الرمل السريع، ثم سرنا معًا فوق حاجز الصخور المنخفضة المسمى البصقة الجنوبية، ثم وضعت عصاي في الاتجاه المطلوب، وجلسنا نرقب حتى عثرت على السلسلة وجذبتها بغير صعوبة.

وكان الصندوق مربوطًا في نهايتها، وتمكنت من فتحه فوجدت شيئًا أبيض يملأ كل الفراغ الداخلي، فمددت يدي فإذا به ثوب من الكتان، وأخرجت الثوب فخرج معه خطاب عليه اسمي، فوضعت الخطاب في جيبي، وحملت الكتان إلى الشاطئ الجاف، وهُناك بسطته أمامي فإذا قميص نوم قلبته في يدي، فاكتشفت على الفور لطخة الطلاء التي أصابته من باب حجرة جلوس راشيل، وعادت إلى ذاكرتي على الفور كلمات الجاويش كاف:

- ابحث هل هُناك أي قطعة من الثياب في هذا البيت عليها لطخة طلاء، وانظر ثوب من هذا، وكيف يُمكن أن يُعلل هذا الشخص وجوده في الحجرة وتلطخ ثوبه بالطلاء فيما بين مُنتصف الليل والثالثة صباحًا، فإن لم يستطع ذلك الشخص تبرير ذلك فليس عليك أن تذهب بعيدًا للبحث عمَّن أخذ الماسة!

وتذكرت أن قميص النوم ربما يحمل اسم صاحبه، فرفعته من فوق الرمل، ووجدت العلامة، وقرأتها، وكانت تحمل اسمي أنا!

وليس عندي ما أقوله عن شعوري الخاص، لأن الصدمة شلَّت تفكيري وإحساسي! وقد أخبرني بتريدج بأنه وجدني أضحك، ثم وضعت القميص بيد يديه طالبًا منه أن يقرأ حل اللغز بنفسه!

وانتقلنا إلى حجرة جلوس بتريدج، وقد نسيت تصميمي على عدم دخول بيت راشيل، ثم شربت كأسًا من الجروج (وهو ما لم أفعله من قبل في مثل ذلك الوقت من النهار)، وشرعت أواجه الموقف، فقلت لبتريدج:

- إني بريء من سرقة الماسة براءتك أنت! ولكن هاك شاهدًا ضدي!

- هُناك خدعة، وعلينا أن نكتشف سرها وموضعها!

وتذكرت عندئذ الخطاب الذي في جيبي فأخرجته، ووجدته مكتوبًا بحروف دقيقة، فنظرت في التوقيع في ختامه فإذا به (روزانا سبيرمان) فشرعت أتلوه وكان فيه ما يلي:

"سيدي، لدي ما أعترف لك به، إني أحبك، وكان يخزيني جدًا أن أصارحك بذلك لو أنني كنت على قيد الحياة وأنت تقرأ هذا الخطاب، ولكن لا ضير عليّ من الاعتراف بالحقيقة والرمال المُغرقة تنتظرني لتواريني بعد الفراغ من الكتابة، ثم إنك ستجد قميص نومك في مكمني، وستحب أن تعلم كيف أخفيته، لقد أخفيته لأني أحبك، أتذكر عندما طلعت علينا من بين تلال الرمال ذلك الصباح تبحث عن المستر بتريدج؟ إنك أبهى إنسان رأيته في حياتي، وازداد تعلقي بك يومًا بعد يوم، وكأنما أنا أجمل مخلوقة رأيتها في حياتك، وكان جنونًا مني أن أحبك وأكره الآنسة راشيل، فبسببها لم أظفر بنظرة منك، وكان في ذلك شقائي العظيم، وفي تلك الأيام الفرة توجهت مرتين أو ثلاث مرات، في نوبات خروجي، إلى مكاني الأثير وهو الشاطئ المُطل على الرمال المُرتعدة وقلت لنفسي: "إذا لم أعد أحتمل، فسينتهي بي الأمر إلى هُنا". وبعد ضياع الماسة قال المستر سيجريف كما قد تذكر: إن ثوب إحدى الخادمات لطخ طلاء باب الآنسة راشيل، وقالت لي بنيلوبي بتريدج (وهي المرأة الوحيدة التي كانت بيني وبينها مودة): إن الباب لم تكن به أية لطخة في منتصف الليل عندما غادرت الآنسة راشيل في فراشها، وإنه جف تمامًا في الساعة الثالثة صباحًا، فلما توجهت إلى عملي، وهو تنظيم فراشك وحُجرتك، وجدت قميص نومك ملقى فوق الفراش كما تركته، فتناولته لأطويه، وهُنا رأيت عليه تلك اللطخة، وأذهلني هذا الاكتشاف حتى إنني خرجت أعدو والقميص في يدي، ثم حبست نفسي في حجرتي حتى إذا استرجعت أنفاسي أيقنت أن هذا القميص دليل على أنك كنت في حجرة جلوس الآنسة راشيل في الليلة الماضية بين الثانية عشرة والثالثة صباحًا، وقررت أن أبقي القميص عندي، ولكن كان عليّ أن أجد وسيله للاحتفاظ به من غير أن يفتضح أمره، وكانت الوسيلة الوحيدة أن أضع قميصًا آخر مثله تمامًا، وعلى هذا أخفيت قميصك في خزانتي، ثم عدت إلى حجرتك وفحصت كل شيء بدقة، فوجدت آثارًا قليلة من الطلاء في ثوب نومك من الداخل، ولكني تخلصت منها

بسهولة بدلكها. ولم أكد أفرغ من حجرتك حتى أرسل المستر سيجريف في طلبي ليستجوبني مع سائر الخدم، فلما انتهى من ذلك دعانا الجرس إلى الغداء. ولم أكن قد أحضرت الخامات اللازمة لصنع القميص، فلم يكن هُناك بُد من اختلاق الوسيلة الوحيدة، فتصنعت المرض على الطعام، وبذلك انفسح لي الوقت من ساعتها إلى موعد الشاي، فتوجهت إلى محل قماش في فريزنجهول واشتريت النسيج، وفي الليل أغلقت على نفسي حجرتي وعكفت على العمل، وكنت أسمع تنفس الخادمات يتجسسن عليّ من وراء الباب، فلم أحفل بذلك وقتئذ، ولا أهمية لهذا الآن. وفي صباح يوم الجمعة، وقبل حضور الجاويش كاف إلى المنزل، كان القميص الجديد تامًا مغسولًا جافًا مكويًا مُطرزًا فيه الاسم، ومطويًا في درجك، وبذلك حصلت على الدليل الوحيد ضدك، ولم يعلم بذلك مخلوق من الأحياء، بغير استثنائك أنت! وأخشى أن أصرح لك بشعوري عندما استعدت في خاطري هذه الأشياء، لئلا تكره ذكراي بعدها إلى الأبد"!

وعند هذه النقطة نظر إليّ بتريدج وقال:

- لا أرى حتى الآن بارقة رجاء يا مستر فرنكلن، فهل تتبين طريقك في هذا التيه؟

- إذا لم يستطع المستر براف والجاويش كاف مُساعدتي، فلست أعرف إنسانًا يستطيع ذلك.

وما نطقت هذه الكلمات حتى طرق باب الحجرة من الخارج طارق، فدهش بتريدج وتضايق، وصاح: "ادخل كائنًا من كنت"!

وانفتح الباب بهدوء، ودخل رجل لم يلفت نظري رجل مثله في حياتي، فبشرته داكنة كبشرة الغجر، وخداه غائران جدًا، وغضون وجهه لا حصر لها، ومن هذا الوجه الغريب تطل عليك عينان أغرب منه أيضًا، وإنساناها البُنيان حالمان حزينان، ثم اعتذر قائلًا: "لم يخطر ببالي أن المستر بتريدج مشغول"!

وتناول من جيبه ورقة قدمها إلى بتريدج قائلًا: "إنها قائمة الأسبوع التالي"، واستقرت عيناه فوقي، ثم غادر الحجرة بالسرعة التي دخلها بها، فسألت بتريدج

عنه فقال:

- إنه مُساعد الطبيب كاندي، ولهذه المُناسبة يا مستر فرنكلن سوف يحزنك أن تعلم أن الطبيب المسكين لم يشفَ قط من المرض الذي أصابه وهو عائد إلى بيته من مأدبة عيد الميلاد، وصحته الآن جيدة، غير أنه فقد ذاكرته أثناء الحُمى ولم يستردها بعد ذلك، لقد تغيرت الأيام وكان من عادة الطبيب أن يحضر القائمة الأسبوعية للمرضى الفقراء المحتاجين لجرعات الشراب، وكانت مولاتي تُزودهم بها، أما الآن فمُساعد كاندي هو الذي يأتيني أنا بالقائمة، ولكن لنعد إلى الخطاب يا سيدي!

وكان المُساعد قد ترك في نفسي أثرًا عميقًا لم أستطع نسيانه، فسألت عن اسمه، فقال لي بتريدج إن اسمه من أقبح ما يكون: عزرا جينجز!

واستأنفنا قراءة خطاب روزانا سبيرمان، وكان فيه أيضًا: "لا حاجة بك إلى الغضب يا مستر فرنكلن إذا علمت أنني شعرت بشيء من الزهو وأنا أملك في يدي مصير حياتك، وسرعان ما عاودتني المخاوف، فوجهة نظر الجاويش كاف في موضوع ضياع الماسة ستؤدي به حتمًا إلى فحص الثياب. ولم يكن هُناك مكان في حجرتي ولا في البيت آمن فيه على القميص، فقررت أن أخفيه، واستقر رأيي على خير مكان أعرفه، وهو الرمال المُرتعدة. وانتهزت أول فرصة فاستأذنت في الخروج لاستنشاق الهواء، وتوجهت مُباشرة إلى كوبزهول، إلى كوخ المستر بولاند، وامرأته أو ابنته أحسن أصدقائي، ولكن لا تظنني استأمنتهما علي سرك، كلا! لم آمن عليه بشرًا، وكل ما أردته أن أكتب لديهما هذا الخطاب إليك ثم أخفي القميص. والآن وقد فرغت تقريبًا من خطابي الطويل، سأذهب إلى مطبخ السيدة يولاند وأعثر على الوسيلة التي أبقي بها القميص سليمًا جافًا في مكمنه، وسأجد ضالتي في الأشياء الموجودة في الكوخ، ثم أذهب إلى الرمال المُرتعدة وأخفي القميص في الرمل حيث لا يستطيع أحد أن يعثر عليه من غير أن يعرف سرّه مني. وماذا بعد ذلك؟

وداعًا أيتها الحياة التي لا يستطيع سوى اليسير من حنانك أن يسعدني بها، ولا تلم نفسك يا سيدي على تلك النهاية، بل اجتهد أن تشعر نحوي بشيء من الغفران، وسأعد الترتيبات كي تعرف ما صنعته لك بعد أن يكون قد استحال عليّ إخبارك به

بنفسي، وعسى أن تقول شيئًا رقيقًا عني من قبيل تلك الكلمات العذاب التي تتحدث بها إلى الآنسة راشيل"!

روزا سبيرمان

سرت إلى المحطة ومعي جبريل بتريدج، والخطاب في جيبي، والقميص ملفوف في حقيبة صغيرة، لكي أعرضهما قبل أن أنام على المستر براف، وقلت لبتريدج في الطريق: "لقد رأيتني قبل سفري الأول إلى الخارج كثيرًا وأنا طفل، فهل تذكر عني شيئًا غريبًا كنت أصنعه بعد إيوائي إلى الفراش؟ هل تبين لك أنني كنت أمشي وأنا نائم"؟

- فهمت مُرادك، أنت تُحاول أن تدرك كيف تلطخ قميصك بالطلاء من غير أن تعلم.. كلا يا سيدي! إنك لم تمشِ وأنت نائم أبدًا! ولكن فلنجرب حلًا آخر، فإننا إن صدقنا قميص النوم - وأنا لا أُصدق هذا الدليل - فأنت لم تلطخ قميصك بطلاء الباب من غير أن تدري فحسب، بل أخذت الماسة من غير أن تدري أيضًا. ولنفرض أنك كنت سكران أو سائرًا وأنت نائم عندما أخذت الجوهرة، فهذا فيه رد على ما حدث ليلة عيد الميلاد والصباح التالي، ولكن كيف يتفق هذا مع ما حدث بعد ذلك؟ لقد أُخِذَت الماسة إلى لندن ورُهِنَت عند المستر لوكر، فهل فعلت أيضًا هذين الشيئين من غير أن تدري؟ فلا تُؤاخذني يا مستر فرنكلن إن قلت لك إن هذه المسألة أزعجتك كثيرًا حتى لم تعد تصلح للحكم فيها بنفسك، وكلما أسرعت بالإفضاء بها إلى المستر براف أسرعت في الخروج من هذا التيه.

ووصلنا إلى المحطة قبل موعد القطار بدقيقة أو دقيقتين، فأعطيت بتريدج عنواني على عجل، ووعدته بأن أُوافيه بالأنباء، وبينما أنا أُودعه حانت مني نظرة إلى كشك الكُتب والصحف، فلمحت مُساعد المستر كاندي الغريب الشكل يتحدث إلى صاحب الكشك، وتلاقت عينانا فرفع قبعته لي، ورددت على تحيته ثم ركبت القطار.

ووصلت إلى لندن في وقت مُتأخر، فلم أدرك مستر براف في محل عمله، ولهذا ركبت من المحطة إلى بيته في هامبستد، ودخلت على المحامي العجوز حجرة طعامه وزجاجة الشراب عن يمينه، فأمر بإضاءة الأنوار وعمل شاي قوي يُقدم في

٢٧٠٧٢٨٨٦٩٨
الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حجرة مكتبه. ثم أرسل إلى سيدات أسرته يُحرم عليهن إزعاج خلوتنا مهما تكن الظروف، وانصرف بعد ذلك إلى فحص قميص النوم ثم جلس ليُطالع رسالة روزانا سبيرمان، فلما فرغ منها قال لي الشيخ:

- يا فرنكلن بليك، هذه مسألة خطيرة جدًا، وفي رأيي أنها تخص راشيل عن قُرب مثلما تخصك، وقد أصبح سلوكها الشاذ نحوك ولا خفاء فيه الآن، فهي تعتقد أنك سرقت الماسة، فأول ما يجب عمله هو مُناشدتها أن تخبرنا من الذي أوحى إليها بهذا الاعتقاد. إن لطخة الطلاء تثبت أن القميص هو الذي تلوث من باب راشيل، ولكن ما الدليل على أنك الشخص الذي كان يرتديه ليلة ضياع الماسة؟ فإن كانت راشيل قد شكت فيك على أساس قميص النوم وحده، فالمُرجح أن روزانا سبيرمان هي التي أطلعتها عليه. وقد ذكرت في خطابها أنها كانت تكره راشيل، ولعلها لمحت بعض الأمل لنفسها إذا شجر خلاف بين راشيل وبينك، فما رأيك في هذا؟

- هذا ما خطر ببالي مُنذ فضضت الخطاب!

- فلما قرأته أخذتك بها الشفقة فلم يُطاوعك قلبك على اتهامها؟

- ولكن لنفرض أنه ثبت أنني كنت أرتدي القميص.. فماذا إذن نصنع؟

- سوف لا نُناقش هذا الآن، ولنتبين الأساس الذي بنت عليه راشيل شكها فيك، والمشكلة الكُبرى هي كيف نجعلها تفصح عن كل ما برأسها في هذا الصدد؟

- لقد عزمت يا مستر براف أن أكلم راشيل بنفسي، وقد كانت ضيفة عليك في هذا البيت، فهل لي أن أقترح مُقابلتها هُنا من غير أن تعلم بوجودي من قبل؟

- معنى هذا بصريح العبارة أن يكون بيتي فخًا لراشيل، ولو لم تكن فرنكلن بليك لرفضت بتاتًا، ولكن اعتقادي أن راشيل ستشكر لي في النهاية ذلك العمل، وسندعوها لتمضية اليوم هُنا، وسنخطرك بذلك.

- متى؟ غدًا؟

- بل قل بعد غد، امكث في البيت طول الصباح وانتظر زيارتي!

فشكرته على معونته بامتنان صادق، وعُدت إلى مسكني في لندن وكان اليوم التالي أطول يوم مر بي في حياتي، وفي الصباح الذي أعقبه فاجأني مستر براف بالزيارة وأنا على مائدة الإفطار، وسلمني مفتاحًا كبيرًا وهو يخبرني بأنه يشعر بالخزي لأول مرة في حياته، وبأنها ستأتي اليوم للغداء وقضاء بعد الظهر مع زوجته وبناته، ثم قال لي:

- هذا مفتاح بوابة حديقتي الخلفية، فكُن هُناك في الثالثة بعد الظهر، وادخل الحديقة واخترق حجرة الموسيقا، وهُناك ستجد راشيل وحدها، أما ما يحدث بعد ذلك فلا تلمني عليه!

وتزجية للوقت جعلت أتصفح بريدي، فوجدت فيه خطابًا من بتريدج، وقد خيب ظني أنه بدأ خطابه بالتنبيه عليّ ألا أتوقع أنباء منه، وبعد ذلك ظهر اسم عزرا جنجز، فقد سأل بتريدج عني، ثم ذكر لسيده الطبيب رؤيته إياي، فلما سمع الطبيب ذلك ركب إلى بتريدج وقال له: عندي دافع خاص للرغبة في مقابلته في أول مرة أذهب فيها إلى تلك المنطقة!

ووضعت الخطاب في جيبي ونسيت أمره!

ولما دقت ساعة كنيسة هامبستيد الثالثة، اخترقت الحديقة ودخلت البيت، ولما وضعت يدي على الباب سمعت نغمات حزينة تنبعث من الحجرة الداخلية، وكثيرًا ما كانت تعزف على البيانو على هذا النحو مُدة إقامتي في بيت والدتها، لهذا انتظرت قليلًا حتى تمالكت نفسي، وبعد ذلك فتحت الباب!

ما كدت أطل برأسي من فرجة الباب، حتى نهضت راشيل عن البيانو، بينما تقدمت أنا نحوها وهتفت باسمها في حنان، فدفع جرس صوتي الدم إلى وجنتيها وارتعدت، فلم أتمالك نفسي وتناولت يدها، فدفعتني عنها بصرخة فزع وهي تقول:

- يا جبان! إنك لوضيع! إنك لجبان لا قلب لك!

- لو لم يكن شرفي في يدك لغادرتك في هذه اللحظة ولم أركِ بعدها أبدًا. ماذا جنيت؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- أنت تسألني أنا هذا السؤال؟

- إن لم تتكلمي أولًا فسأتكلم أنا، فأنصفيني بالإصغاء!

فلم تتحرك ولم تجب، وبكبرياء تعدل عناد كبريائها رويت لها ما اكتشفته في الرمال المُرتعدة وكل ما وصلت إليه، ثم قلت لها:

- هل أطلعتك روزانا سبيرمان على هذا القميص؟

- أمجنون أنت؟

- إنك تتهميني بسرقة ماستك، ومن حقي أن أعرف الأسباب!

- أنا أتهمك أيها الوغد؟ لقد رأيتك بعيني رأسي تأخذ الماسة!

وبرغم براءتي التامة، وقفت أمامها صامتًا، ففي نظرها وفي نظر أي إنسان كُنت أبدو ولا شك مُذنبًا، ويبدو أن الصمت المباغت الذي نزل عليّ أفزعها فقالت:

- لقد رحمتك في ذلك الوقت، وكنت حرية أن أرحمك الآن لو لم تجبرني على الكلام، فأرجو ألا تقول شيئًا بعد ذلك!

فتناولت يدها وأجلستها بجواري وقلت لها:

- يا راشيل، لقد أحببتني يومًا ما، وقد رأيتني بعيني رأسك آخذ الماسة، وأنا أقسم لكِ بأنني أعلم الآن لأول مرة أنني أخذتها! فهل لا زلتِ تشكين فيّ؟

فكان كل جوابها، أن قالت بصوت خافت وهي مشيحة عني:

- اترك يدي!

- أريدك أن تخبريني بكل ما حدث، من لحظة تبادل تحية المساء إلى أن رأيتني آخذ الماسة!

- وفيم الرجوع إلى هذا الموضوع؟

- لو راجعنا ما حدث ليلة عيد ميلادك معًا، ربما انتهينا إلى التفاهم.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- نتفاهم؟ لقد كنت أراك وقد انعكست صورتك في مرآة بحجرة جلوسي، فوضعت شمعتك فوق الخزانة، ثم فتحت الأدراج واحدًا بعد الآخر، إلى أن وصلت إلى الدرج الذي وضعت فيه ماستي، فنظرت إلى الدرج المفتوح لحظة ثم وضعت يدك فيه وأخرجت الماسة، ورأيت بريق الجوهرة بين أصبعك وإبهامك عندما أخرجت يدك.

- ستعلمين أنكِ ظلمتيني حتى الآن، ولن تري وجهي أبدًا!

- ثم غادرتها، فنهضت من المقعد الذي كانت قد ألقت بنفسها عليه وتبعتني عبر الحجرة وهي تقول:

- فرنكلن! إني غفرت لك! آه يا فرنكلن.. إننا لن نلتقي بعد ذلك، فقل إنك غفرت لي!

- فالتفت إليها ولوحت بيدي من خلال الدموع التي واتتني في النهاية، وبعد لحظة كُنت في الحديقة، فلم أعد أسمعها أو أراها!

وفي ذلك المساء فوجئت بزيارة المستر براف الذي صافحني لأول مرة في صمت وقال:

- أتيت لتوي بعد توصيلي راشيل إلى شارع بورتلاند، فهل لي أن أعتمد عليك في عدم مُحاولة مقابلتها مرة أُخرى؟

بعد الذي قاست وقاسيت، أعاهدك على ذلك!

وعلى هذا افترقنا، وفي ساعة مُبكرة من صباح اليوم التالي توجهت إلى دوركنج، وهو المكان الذي اعتكف فيه الجاويش كاف، فتبين لي أنه رحل في اليوم السابق إلى أيرلندة، فتركت الرسالة الآتية مكتوبة بالقلم الرصاص:

"عندي ما أقوله لك عن جوهرة القمر، فأخطرني بمجرد عودتك"، وبعد ذلك غدت إلى لندن، وفي اليوم التالي اتفق لي أن عثرت بخطاب بتريدج المنسي في جيبي، والذي يبلغني فيه رغبة الدكتور كاندي في مقابلتي في أول مرة أكون فيها بتلك الجهة، فكتبت الرد، ثم جلست أفكر في الساعات الأولى من يوم عيد ميلاد راشيل، لعلي أتذكر ما يهديني إلى شيء، وقررت أن أدون أسماء جميع من حضروا للعشاء،

وأن أطلب منهم تدوين كل ما يذكرونه عن ذلك اليوم.

كان وصولي إلى فريزنجهول في وقت مُتأخر، فلم تتح لي مُقابلة بتريدج، وفي الصباح بعثت إليه رسولًا برغبتي في رؤيته في مدى ساعتين، ثم توجهت لزيارة الطبيب كاندي في الشارع المُجاور. ولم أتوقع أن أرى كل هذا التغير الذي طرأ على الطبيب، فقد وجدته حطامًا لم تبقَ فيه بقية من شخصيته السابقة، وقال لي: "لقد سرتني رؤيتك يا مستر بليك، هل هُناك ما أستطيعه لك"؟

- يا دكتور كاندي، إنك بعثت إليّ برسالة عن طريق جبريل بتريدج بأن لديك ما تقوله لي!

فبدت عليه الدهشة، واستغرق في صمته من جديد! فتذكرت أن بتريدج أخبرني بأن الحمى أثرت في ذاكرة الطبيب.

وبعد برهة نهضت لأنصرف، فانتشرت سحب الكآبة على وجهه ثانية، وبعد أن همّ بمُصاحبتي إلى الشارع عدل عن رأيه فجأة، وهبطت سلم الطبيب في بُطء، وأنا أشعر بالأسف لأنه لدى الطبيب فعلًا ما يقوله لي، وهو شيء يهمني جدًا أن أسمعه، غير أنه غير قادر على التذكر، ووصلت إلى آخر السلم عندما سمعت صوتًا رقيقًا ورائي يقول لي: "أخشى يا سيدي أنك وجدت الطبيب قد تغير تغيرًا مُحزنًا"؟

فالتفت لأرى نفسي وجهًا لوجه أمام عزرا جنجز!

وقلت له لما رأيت قبعته في يده:

- أرى أن مرض الطبيب كان أخطر مما ظننت!

- بل إنها لمُعجزة تقريبًا أنه عاش بعد ذلك المرض!

- وهل لا تتحسن ذاكرته في أوقات عما وجدتها اليوم؟ لقد حاول أن يُكلمني، وأعتقد أنه مما يهمني جدًا أن أعرف ما كان يريد أن يقوله لي، فهل تقترح طريقة أستحث بها ذاكرته؟

فنظر إلى جنجز وقد لمعت عيناه الحالمتان البنيتان ببريق الاهتمام وقال:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- لا جدوى في استنهاض ذاكرته! ولكن قد نستطيع اكتشاف الموضوع المنسي من غير طريق المستر كاندي نفسه، ولهذا الغرض سأذكر لك شيئًا عن مرضه. ففي ليلة المأدبة لدى الليدي فيرندر عاد مخدومي تحت وابل مطر شديد، فلما وصل إلى البيت وجد رسالة مستعجلة من مريض فخرج بثيابه المُبتلة ليعود مريضه. وكنت أنا في عيادة مريض خارج فريزنجهول، فلما غدت في اليوم التالي وجدت المستر كاندي مريضًا مرضًا شديدًا، فدعوت طبيبين وصفا له علاجًا، ولكن ضعفه اشتد، فألححت عليهما أخيرًا أن يُجربا علاجًا مُنشطًا لا مُهبطًا، فرفضا وانسحبا، فأعطيته العلاج المُنشط المُنبه، وبعد أربع وعشرين ساعة مروعة بدأ يتحسن، وكنت مُنذ زمن مشغولًا بتأليف كتاب في موضوع الدماغ والمخ والجهاز العصبي، وكان المستر كاندي يهذي أثناء مرضه، فكان في مقدوري وأنا مُلازم فراشه أن أدوّن هذيانه بالاختزال كما يخرج من شفتيه.

- وهل كان اسمي مما ورد على لسانه وهو يهذي؟

- ستعرف الآن يا مستر بليك، فقد قضى ليلة بطولها تقريبًا وذهنه مشغول بشيء بينه وبينك، وقد احتفظت بكلماته المُتقطعة كما لفظها مُدوّنة.

- فلنعد فورًا لنراها!

ثم أطلعته على الحقيقة، فتطلع إليّ بلهفة عندما وصلت إلى النقطة الحساسة في قصتي، فقلت له: "من المؤكد أنني ذهبت إلى الحُجرة، ومن المؤكد أنني أخذت الماسة، وكل ما عندي لدفع هاتين الحقيقتين أنني أقدمت على ذلك من حيث لا أشعر"!

فقبض عزرا جنجز على ذراعي بعصبية وقال:

- قف، لقد أوحيت إليّ بأكثر مما قدرت، هل كان من عادتك تعاطي الأفيون؟

- إني لم أذقه في حياتي!

- هل كانت أعصابك غير مُستقرة في مثل هذا الوقت من العام الماضي؟

- أجل.

- هل كُنت تنام نومًا سيئًا؟

- بل شنيعًا، وقضيت ليالي كثيرة لم أنم فيها قط!

- حاول أن تتذكر، هل نمت جيدًا ليلة عيد الميلاد؟

- أتذكر أنني نمت نومًا عميقًا!

فألقى بذراعي بغتة، وقال لي:

- إنني مُتأكد يا مستر بليك أنني أدركت ما كان المستر كاندي يريد أن يقوله لك هذا الصباح، فهو المُدون في المذكرات التي احتفظت بها، ومُتأكد أيضًا أنني أستطيع أن أبرهن على أنك كنت غير واعٍ لما تفعل عندما دخلت الحجرة وأخذت الماسة!

فرجوته بلهفة أن يُوضح، وقبل أن يجيبني التقينا برجل كان يبحث عنه لا محالة إذ قال له من بعد إنه سيأتي على الفور، ثم التفت نحوي قائلًا:

Telegram:@mbooks90

- هُناك حالة عاجلة في تلك القرية تنتظرني، فأمهلني ساعتين ثم عُد إلى دار المستر كاندي، وأعدك بأنني سأكون مُستعدًا لخدمتك، فإلى اللقاء يا سيدي في فريزنجهول بعد ساعتين!

وهُناك وجدت جنجز في انتظاري، جالسًا وحده في حجرة صغيرة عادية من داخل حجرة الجراحة، فقال لي:

- إذا قرأت هذه المذكرات الآن يا مستر بليك فستجد أمرين مُدهشين يتعلقان بك: أولهما أنك دخلت حجرة جلوس الآنسة فيرندر وأخذت الماسة وأنت في حالة غيبوبة ناشئة عن الأفيون، والأمر الثاني أن الأفيون قُدِّمَ إليك وأنت لا تدري بواسطة المستر كاندي ليثبت لك خطأ رأيك الذي أعلنته تلك الليلة في فن الطب!

وجلست والأوراق بين يدي مبهوتًا، فقال بلطف:

- حاول أن تغتفر للمستر كاندي المسكين! وسترى من المُذكرات أنه لولا مرضه لعاد

إلى بيت الليدي فيرندر في الصباح التالي وأخبرك بما صنعه معك!

- قد أغفرا ولكني لن أنسى! ومن الذي أعطاني الأفيون بغير علمي؟

- لا أستطيع أن أخبرك، فكل علمي أنه قُدّم لك سرًا بطريقة ما، فاقرأ المُذكرات إن استطعت، فعندي شيء مُدهش سأقترحه عليك!

فنظرت إلى الورقة الأولى، فإذا كلمات وجُمل محطمة مُتناثرة من فم المستر كاندي"... مستر فرنكلن بليك.. ولطيف.. دواء.. أعترف.. ينام ليلًا.. أخبره.. مضطرب.. الطب.. يقول لي..".

وكانت الصفحة كلها مملوءة بكلمات يتردد اسمي فيها أكثر من مرة، كما جاء فيها ذكر جرعة من الأفيون، ولكن بغير ارتباط بين أي كلمة وأخرى، فأعدت هذه الورقة إلى جنجز ونظرت في الورقة الأخرى فإذا بها تحمل الحل الكامل الذي يملأ هذه الفجوات بخط جنجز، ونصها:

إن المستر فرنكلن بليك ماهر ولطيف، ولكن يجب أن يتواضع قليلًا حين يتكلم عن الدواء والطب، وهو يعترف بأنه كان يُعاني من قلة النوم ليلًا، فأخبرته أن أعصابه مُضطربة وأنه ينبغي أن يتعاطى دواء، فقال لي إن تعاطي الدواء والتخبط في الظلام شيئان، بمعنًى واحد، وكان ذلك أمام الحاضرين جميعًا على مائدة العشاء، فقلت له إنك تتخبط في البحث عن النوم، ولن يعينك على الوصول إليه سوى الطب، فقال لي إنه سمع بالأعمى الذي قاد أعمى، ولكنه عرف الآن معنى هذا التشبيه. إنه بارع النكتة حاضر البديهة، ولكن سأعطيه النعاس بالرغم منه، فهو بحاجة إلى النوم، وصندوق أدوية الليدي فيرندر تحت تصرفي، فسأقدم له الليلة من غير علمه خمسًا وعشرين خردلة من الأفيون، ثم أعود في صباح اليوم التالي فأقول:

- هل لك يا مستر بليك في تجربة شيء من الدواء اليوم؟ سوف لا تنام من غيره.

- أهذا أنت يا مستر كاندي؟ لقد نمت نومًا عميقًا الليلة بغير دواء!

وعندئذ أفاجئه بالحقيقة قائلًا:

- لقد حظيت بشيء إلى جانب راحة النوم، وهو جرعة من الأفيون يا سيدي قبل أن تأوي إلى فراشك، فما قولك الآن في فن الطب.

وبالمراجعة (وكان قد سجل الكلمات المتقطعة بحبر أسود، وملأ الثغرات بحبر أحمر) فاضت نفسي إعجابًا ببراعة المستر جنجز، غير أنه قاطع إطرائي قائلًا:

- إذا كُنت تعتقد ما أعتقد، وهو أنك كنت تحت تأثير الأفيون، فهل أنت مُستعد للقيام بتجربة جريئة؟

- سأعمل أي شيء لتبرئة نفسي من الشُبهة المُلقاة عليّ الآن، فقل لي ماذا أعمله مهما كانت النتيجة!

- إنك يا مستر بليك ستسرق الماسة من حيث لا تشعر للمرة الثانية بحضور شهود!

فوثبت قائمًا على قدمي وحاولت أن أتكلم، غير أني لم أقدر إلا على الحملقة!

- حاول أن تهدأ! واجلس واسمع ما سأقوله لك.. إني أرى بنفسي أنك عُدت إلى التدخين، فمُنذ متى عُدت إليه؟

- مُنذ سنة تقريبًا!

- هل تدخن أكثر أو أقل مما كنت تُدخن قبل الإقلاع؟

- أكثر.

- هل لك في الإقلاع عنه فجأة ثانية، كما فعلت في المرة السابقة؟

فتبينت هدفه، وقلت: "سأقلع عن التدخين مُنذ هذه اللحظة"!

- إذا استطعنا أن نضعك في نفس الظروف تقريبًا التي كُنت فيها في يونيه الماضي، فقد تعيد تصرفاتك في ليلة عيد الميلاد!

- ولكني لم أفقه تأثير الأفيون عليّ فإني أحسبه يُذهل ثم يُنوم!

- إن تأثير الأفيون في معظم الحالات إنه ينبه أولًا ثم يهبط بعد ذلك.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ففي فترة التنبه يُمكن لإحساسات القلق التي شعرت بها أثناء النهار على سلامة الماسة أن تُوجه خطواتك إلى الحجرة التي دخلتها، وتُوجه يدك إلى درج الخزانة إلى أن تعثر على الجوهرة، حتى إذا تغلب أثر العنصر المُهبط تُصاب بالذهول، ثم تنام نومًا عميقًا. وفي الصباح تصحو ولا علم لك على الإطلاق بما فعلت أثناء الليل، وربما أثرّت الجرعة الثانية من الأفيون فيك بحيث تتذكر المكان الذي أخفيت فيه الماسة!

- ولكنك تتحدث عن أمر مستحيل، فالماسة في هذه اللحظة في لندن، ولا أحد يعلم كيف وصلت إلى هنالك!

- يا مستر بليك، يبدو أن هناك نقطة غامضة، فما أدراك أن الماسة في لندن؟

فأعدت عليه ما سمعته بنفسي من المستر براف، فلم يظهر الاقتناع، وكانت وجهة نظره جديدة بالنسبة لي تمامًا، فهو يعتقد أن تأثير الأفيون بعد أن جعلني آخذ الماسة ربما جعلني أخفيها في مكان ما بحجرتي الخاصة، وأننا إنما نبني اعتقادنا بوجود الماسة لدى لوكر على افتراض صواب الهنود في توجيه شبهتهم نحوه.

- ولكن أي دليل لدينا على أنها مرهونة لدى لوكر؟ فلوكر يقرر أنه لم يسمع مُطلقًا بجوهرة القمر، والهنود يعتقدون أنه كذاب!

- إني أعترف بأنك تُدهشني، فهل تُمانع أن أكتب إلى المستر براف بما قلت؟

- بالعكس يسعدني أن تكتب إليه، والآن علينا أن نعيد بقدر الاستطاعة الظروف العائلية التي أحاطت بك في العام الماضي، وأهم شيء أن تنام في الحجرة التي نمت فيها ليلة عيد الميلاد، وأن تكون مفروشة على نفس النسق، فهلا استأذنت في ذلك؟

- هذا خارج الموضوع بعد ما حدث بيني وبين الآنسة فيرندر بشأن الماسة الضائعة.

- هل أنا على صواب في اعتقادي بأنك كُنت مُهتمًا بالآنسة فيما مضى؟ وهل كان الشعور مُتبادلًا؟

ولما أجبت بالإيجاب، مضى يقول:

- ألا تظنها تشعر باهتمام شديد بمحاولة البرهنة على براءتك؟

- أنا واثق من هذا!

- إذن سأكتب أنا إلى الآنسة فيرندر، بعد إذنك، وأخبرها بما دار بيننا! ولا حاجة إلى القول بأنني قبلت ما عرضه بتلهف، فنظر في ساعته وقال:

- أمامي فسحة للكتابة ببريد اليوم، فلا تنس أن تغلق الدرج على سجائرك، عندما تعود إلى الفندق، وسأمر بك غدًا لأعرف كيف أمضيت ليلتك!

فنهضت مُستأذنًا، مُحاولًا الإعراب عن امتناني الصادق لكرم أخلاقه، وكنا في الخامس عشر من يونيه، وقد سجلت حوادث الأيام العشرة التالية بحذافيرها في يوميات مُساعد الطبيب كاندي، فلنترك له المجال ليخبرنا كيف قام بتجربة الأفيون، وكيف تمت التجربة، وكيف انتهت!

الرواية الرابعة

مستخرجة من يوميات عزرا جنجز

تجربة الأفيون

١٨٤٩ – ١٥ يونيه: فرغت من خطابي إلى الآنسة فيرندر ليدرك اليوم تركت الخيار لها. فإذا وافقت على المساعدة في التجربة، فبملء حريتها.

١٦ يونيه: وجدت المستر فرنكلن هذا الصباح يفطر بالبراندي والصودا. وأخبرني بأنه قضى ليلة مزعجة ولا شهية له للأكل كل هذا الصباح. وهو عين ما حدث في العام الماضي عندما أقلع عن التدخين. وأنه كتب في اليوم السابق إلى المستر براف، أخبرته بأنني كتبت إلى الأنسة فيرندر، وعلى ذلك ستأتينا غدًا أنباء.

١٧يونيه: أخبرني المستر كاندي هذا الصباح بأنه سيسافر في إجازة لمدة أسبوعين. ولعل سفره في هذا الوقت من حسن الحظ. تلقيت رد الآنسة فيرندر في خطاب رقيق، إنها لم تعد بحاجة إلى دليل براءة المستر بليك. وأنها ساخطة على نفسها لأنها لم تدرك الحقيقة من قبل. وأعربت عن رغبتين: أن أخبر المستر فرنكلن بليك بأنها تصرح له باستخدام بيتها. وألا أخبره بأكثر من ذلك. كما أعربت لي عن أملها في حضور التجربة، وأنها تنتظر إشعارًا مني قبل سفرها إلى يوركشاير. وأظنها تريد أن تخبر المستر بليك بنفسها قبل التجربة بأنها تؤمن ببراءاته. وأنا مقدر شعورها، ولكن ذلك غير مستطاع. ففرحة اللقاء بينهما ستؤثر في عقل المستر بليك وتقضي على نتائج التجربة. وفي الساعة الخامسة كتبت ردي على الآنسة فريندر مقترحًا عليها أن تأتي سرًا إلى البيت في ليلة التجربة. وسأدبر الأمر بحيث يكون المستر بليك في مخدعه عند وصولها فلا يتقابلان. وبعد إعطائه الأفيون لا اعتراض على مراقبتها النتيجة معنا. وفي اليوم التالي تستطيع إن شاءت أن تطلع المستر بليك على خطاباتها إليّ لتثبيت اعتقادها ببراءته مقدمًا.

١٨ يونيه: نام المستر بليك نومًا سيئًا. تلقى خطابًا اليوم من المستر براف يبدي اعتراضه على ما سنصنع، لأنه سيحيي آمالاً يحتمل أن تخيب. وهو مقتنع بوجود

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جوهرة القمر لدى لوكر. ويشاطره ميرثويث هذا الرأي.

٢٠ يونيه: ورد خطاب اليوم من الآنسة فيرندر بالموافقة على اقتراحي. المستر بليك يشعر بتعب شديد. كلما تم تأثيث الحجرات كان ذلك أفضل. تلقى هو خطابًا من الجاويش كاف الموجود بأيرلندا بأنه سيعود إلى إنجلترا في مدى أسبوع، ويريد أن يعلم إن كان في مقدوره أن يصنع شيئًا ما. بعد قراءة الخطاب نصحت للمستر بليك أن يخطر الجاويش بكل ما حدث وأن يدعوه لحضور التجربة إن عاد إلى إنجلترا في الوقت المناسب. فلو ثبت فشل نظريتي عن اختفاء الماسة في حجرة المستر بليك، فستكون معونة كاف ذات أهمية كبرى. وقد زرنا البيت ووجدنا العمل سائرًا على ما يرام. وكلما رآنا بتريدج، وقد ارتدى لهذه المناسبة قلنسوة حمراء ومريلة خضراء، أخرج كراسته وقلمه وأصر على تدوين كل ما أتفوه به.

٢٢ يونيه: أمضى المستر بليك أسوأ لياليه. ذهب إلى البيت فوجد التأثيث يتم غدًا السبت. يجب تأجيل التجربة إلى الاثنين، لأن مواعيد القطارات تجعل من المستحيل السفر من لندن يوم الأحد. ليس أمامنا إلى يوم الاثنين ما نصنعه سوى إبقاء المستر بليك في حالته التي هو عليها اليوم. نصحت له دعوة المستر براف. إن نجحنا في إقناعه كان انتصارًا كاملًا!

الاثنين ٢٥ يونيه: يوم التجربة. الساعة الآن الخامسة بعد الظهر وقد وصلنا إلى البيت. أعتقد أن المستر فرانكلن في نفس حالته التي كان عليها منذ سنة. من حيث الاستعداد للتأثر بالأفيون. ستحضر الآنسة فيرندر بقطار بعد الظهر، وقد قبل المستر براف مرافقتها. لم نتلقَ أي شئ من كاف. فهو لا يزال بأيرلندا قطعًا!

الساعة السابعة: سنتناول العشاء في نفس الساعة التي قدم فيها في العام الماضي. وفي نيتي بعد العشاء أن أدير الحديث حول الماسة والمؤامرة الهندية حتى إذا امتلأ رأسه بهذا الموضوع أكون قد فعلت كل ما في وسعي حتى موعد تعاطي الأفيون.

منتصف التاسعة: نظرت في صندوق الأدوية بحثًا عن الأفيون الذي استعمله كاندي في العام الماضي. ووجدت الزجاجة ملآنة ونويت استعمالها.

الساعة العاشرة: وصل الجميع منذ ساعة، وقبل وصولهم وضعت بليك في حجرته بحجة التأكد بنفسه من عدم إغفال شيء في إعادة تأثيثها. وبعد خمس دقائق سمعت طرقًا. وكان القادم هو المستر براف. وقبل أن يتوجه إلى حجرة المستر بليك حذرته من إخباره بما يدل على وجود الآنسة فيرندر في البيت. فنظر إليّ نظرة دلتني على مقدار عدم ثقته بي وقال: "أعلم أنه مطلوب مني الهدوء"! وكان يجب بعد ذلك أن أقابل الآنسة فيرندر. فتوجهت في شيء من الاضطراب إلى حجرة جلوسها. وأجابت طرقتي بسرعة وصافحتني بحرارة قائلة:

- لا أستطيع أن أعتبرك غريبًا يا مستر جنجز. فلكم أسعدتني!

ونظرت في وجهي القبيح المتغضن نظرة امتنان ليس لي بها عهد، حتى لم أدرِ كيف أجيبها. لأني لم أتهيأ لتلك الرقة وهذا الجمال. وشعرت بالخجل كأنني غلام صغير. ولما عدت إلى حجرة المستر بليك وجدته بمفرده نافد الصبر فسألته عن المستر براف، فقال: "إنه طلب منه مرة أخرى أن يتخلى عن هذه التجربة. فلما فشلت في إقناعه توجه إلى حجرته ليعمل". ولم تكن الساعة قد بلغت العاشرة. ودلت تحرياتي على أن كاندي لا يمكن أن يكون قد أعطى المستر بليك الأفيون قبل الحادية عشرة. ولهذا قررت الانتظار حتى تلك الساعة. وتحدثنا قليلًا ولكن كلينا كان مشغول الذهن في التفكير بالتجربة، فلم نجد ما نقوله. وعندئذ تناول المستر بليك كتابًا وشرع يقرأ. ودونت أنا ما حدث الآن في يوميتي. وها هي ذي ساعتي تشير إلى اقتراب الحادية عشرة.

الساعة الحادية عشرة: استدعيت بتريدج، وقلت للمستر بليك: تستطيع أخيرًا التهيؤ للنوم. جاءني بتريدج بقطعة من الورق من عند الآنسة فيرندر تسألني أن آتي إلى حجرتها لتحضير جرعة الأفيون لأنها في قلق وحدها.

فأمرت بتريدج بأن يأخذ صندوق الأدوية إلى حجرتها. ثم ذهبت لأحضر المستر براف وقلت له: "يؤسفني أن أزعجك يا سيدي. ولكني بصدد تحضير جرعة الأفيون للمستر بليك. وأحب أن تكون حاضرًا كما أريد أن تأتي معي عندما أقدمها إليه. وأن تبقى في حجرة المستر بليك وترى بعينيك ما سيحدث". فوافق على ذلك. وتوجهنا

إلى حجرة الآنسة فيرندر حيث وجدناها شاحبة غير مستقرة، وسألتني: "كم من الوقت يمضي قبل أن تبدأ النتيجة"؟ فقلت لها: "إن التنبؤ ليس سهلًا، وربما يستغرق ذلك ساعة". فقالت: "سأنتظر في مخدعي والباب منفرج قليلًا. وسأرقب باب حجرة الجلوس. ومتى رأيته يتحرك سأطفئ النور. فهذا هو ما حدث ليلة عيد ميلادي. ولا بد أن يتم كل شيء على نفس الصورة. أليس كذلك"؟

فتطلعت إلى وجهها، وتبينت أنني أستطيع، برغم حالتها العصبية، أن أعتمد عليها. ثم صببت مقدار الأفيون في كوب وتركت للآنسة فيرندر إضافة الماء. فلما تم ذلك قدمت إليها قطعة البلور التي ستحل محل الماسة لتضعها حيث وضعت الجوهرة القمر في العام الماضي. فلما فعلت ذلك توجهت مع المستر براف وبتريدج إلى حجرة المستر بليك، وأعطيته الأفيون بحضورهم، وطلبت منه أن يرقد ويلزم الهدوء وينتظر. وكانت رأس الفراش إلى الحائط وعلى جانبيه مسافة كبيرة فارغة، فأسدلت الستائر بإحكام على أحد الجانبين، وتوارى خلفها المستر براف وبتريدج. وجلست عند قدم الفراش، والستائر نصف مسدلة بحيث يتسنى لي أن أدع المستر بليك يراني أو لا يراني على حسب ما يتراءى لي. وبعد عشرين دقيقة كان كل شيء قد تم، وليس أمامنا سوى الانتظار. وبدأ القلق يبدو على الاثنين الآخرين. فهمس بتريدج يسألني متى سيبدأ تأثير الأفيون، فقلت له هامسًا: إن ذلك لن يكون قبل منتصف الليل!

الساعة الثانية عشرة إلا خمس دقائق: لاحظت أول تغير على المستر بليك. فبدأت عيناه في اللمعان ونضح وجهه بالعرق. وبعد منتصف الليل بثلاث وعشرين دقيقة جلس في الفراش وشرع يكلم نفسه عن الماسة. فراقبته عشر دقائق. فلم يحدث شيء. وبعد ذلك قذف الأغطية بغتة وأخرج إحدى ساقيه من الفراش، وانتظر قليلًا ثم قال لنفسه: "ليتني لم أحضرها من المصرف".

ثم غادر الفراش وقال وهو يتململ بقلق: "وكيف أعلم؟ ربما يكون الهنود مختبئين في البيت". وانتظر ثانية. وأصبح كل شيء يتوقف على ما سيفعله بعد ذلك فإذا به يستلقى فوق الفراش، فخيل إليّ في لحظة هائلة أن التجربة باءت بالفشل. ولكن ها

هو ذا ينهض بغتة ويقول: "كيف أنام وهذه المسألة تشغل ذهني". ثم تناول شمعة من فوق المائدة بجوار فراشة وغادر الحجرة.

وتبعناه في الدهليز إلى حجرة جلوس الآنسة فيرندر مباشرة، فدخل تاركًا الباب مفتوحًا. ولمحنا الآنسة فيرندر واقفة بهدوء عند باب حجرتها. وبعد أن انتظر دقيقة أو أكثر في وسط الحجرة، اتجه إلى الخزانة الهندية ووضع شمعته فوقها. وفتح الأدراج ثم أغلقها واحدًا بعد آخر إلى أن وجد الماسة المقلدة، فتناولها بيمينه والشمعة بيساره وعاد إلى وسط الحجرة!

ترى هل سيرينا الآن أين وضع الماسة الحقيقية؟ لقد انتظرنا ونحن نعلق أنفاسنا، ومرت الدقائق وهو واقف هناك، فجأة ترك الماسة المقلدة تسقط من يده ومشى يترنح إلى الأريكة فرقد واستغرق في النوم!

ودخلنا الحجرة، وانضمت إلينا الآنسة فيرندر. ولما كنت أقدر أن المستر بليك سينام ست ساعات أو سبعًا، طلبت منها بطانية أغطيه بها، ثم التفت إلى المستر براف وبتريدج وقلت لهما: "هل اقتنعتما كلاكما بعد الذي رأيتما الليلة بأنه عندما أخذ المستر بليك الماسة في العام الماضي كان لا يدري ما هو صانع"؟

فكان جوابهما وهما يعتذران لشكهما في رأيي أنهما اقتنعا. فسألت المستر براف: هل أنت مستعد لأن تكتب ما رأيته الليلة؟ فوافق بارتياح. ولما فرإ من ذلك قال لي: "كلمة أخيرة. أنت تعتقد ان الماسة مخبأة في حجرة بليك. وأنا أعتقد أنها في مصرف لوكر بلندن. وسأعود في الصباح إلى لندن. وأحب ان تبلغ بليك رغبتي في وجوده بلندن فقد تحتاج إلى معونته في الموضوع".

فوعدته أن أبلغ المستر بليك ذلك، وصافحني ثم خرج مع بتريدج من الحجرة، فجلست على الأريكة أنتظر يقظة المستر بليك. وجلست الآنسة فيرندر بجواري في هدوء وأنا أدون هذه السطور.

وفي الساعة الثامنة بدأ يتحرك. فركعت بجوار الأريكة ليكون وجهها أول شيء تقع عليه عيناه حين يفتحهما".

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الرواية الخامسة

تتمة أوردها فرانكلن بليك

الميت المتنكر

يحتاج الأمر إلى إضافة كلمات من جانبي تتم بها الرواية كما تمثلت في يوميات عزرا جنجز. وكل ما أقوله بشأني أنني أفقت في صباح اليوم السادس والعشرين وليست لدي أي فكرة عما قلته أو فعلته وأنا تحت تأثير الأفيون. أما الذي حدث بعد يقظتي فلست أشعر بأن من واجبي تقديم حساب عنه بالتفصيل.

وكل ما أقوله أنني وراشيل كنا على تفاهم قبل أن نتبادل أي كلمة أو توضيح. وأننا معًا نرفض الخوض في الموضوع أكثر من ذلك!

وعلى مائدة الإفطار، لم يكتمني مستر براف رغبته في عودتي معه إلى لندن بقطار الصباح. فإن مراقبة المصرف وما يمكن أن يترتب عليها كانت تلقي صدًى كبيرًا لدى راشيل وتطلعها، فقررت العودة معنا إلى المدينة. وكان أسفنا الوحيد مرجعه أننا اضطررنا إلى مفارقة عزرا جنجز قبل الأوان، ولم نستطع إقناعه بالسفر معنا، فوعدته بالكتابة إليه وألحت عليه راشيل أن يأتي لزيارتها عندما تعود إلى يوركشاير. ومع ذلك كان من الأليم لنا أن نرى خبر صديق يقف وحده على إفريز المحطة، والقطار يتحرك بنا. وعند وصول القطار إلى لندن وجد المستر براف في استقباله غلامًا صغيرًا جاحظ العينين، تدوران في عجب في جميع الاتجاهات. وبعد أن أصغى للغلام اعتذر المستر براف للسيدات من عدم استطاعتنا مرافقته إلى شارع بورتلاند. وركبنا عربة قيل لسائقها أن يتجه بنا إلى شارع لمبارد. ثم قال المستر براف:

- شوهد المستر لوكر يغادر بيته منذ ساعة وفي رفقته ضابطان في ملابس مدنية. فإن كان خوفه من الهنود حمله على ذلك، فلا شك أنه ذاهب لسحب الماسة من المصرف. وهل رأيت غلامي هذا؟ إنهم يسمونه "عنب الديب" ولكنه من أبرع غلمان لندن يا مستر بليك بصرف النظر عن جحوظ عينيه!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وكانت الساعة الخامسة إلا عشرين دقيقة عندما وقفنا أمام المصرف في شارع لمبارد، ونظر الغلام إلى المستر براف مستطلعًا متلهفًا، فدعاه المستر براف إلى الدخول معنا، على أن يبقى بجواره لحين صدور أوامر أخرى.

ثم دخلنا، وكانت الرحبة الخارجية مزدحمة بالناس، واقترب رجلان من بين الزحام من المستر براف، فسألهما: هل أبصرتما الرجل المطلوب؟ فأخبراه بأنه دخل إلى المكاتب الداخلية منذ نصف ساعة ولم يخرج إلى الآن. فقرر براف الانتظار!

ونظرت فيمن حولي من الناس منقبًا عن الهنود الثلاثة، فلم أجد لهم أثرًا.

وكان الشخص الأسمر الوحيد رجلًا طويلًا تبدو عليه هيئة البحارة. فهو أطول من أي واحد في الهنود. ووجهه أعرض من وجوههم مرتين. وقال المستر براف: "لا بد أن لهم جاسوسًا في موضوع ما. وربما كان هذا الرجل"؟ وفي هذه اللحظة أشار الفتى الجاحظ العينين إلى المستر لوكر، فرأيناه خارجًا من المكاتب الداخلية ومعه الشرطيان. فقال المستر براف للغلام: "راقبة جيدًا. فإنه سيعطي الماسة لأحد، فسيكون ذلك هنا".

وخيل إلينا أننا رأينا المستر لوكر يعطي شيئًا لرجل قصير في ملابس رمادية، فتتبعناه أنا وبراف. واختفى المستر لوكر يتبعه أحد رجلي المستر براف. أما الجاحظ أو عنب الديب والرجل الآخر فلم نجد لهما أثرًا. وركب الرجل ذو الثياب الرمادية مركبة عامة فتتبعناه. وفي شارع أكسفورد نزل ونزلنا. فدخل صيدلية، وعندئذ صاح براف: "إنه صيدلي! صيدلي الخاص! أخشى أننا أخطأنا". ودخل المحل ثم خرج بسرعة ليخبرني بأن الرجل لا يعلم شيئًا عن جوهرة القمر. وأن له ثلاثين سنة في خدمة صيدليه الخاص. فلما رجعنا إلى مكتب براف في ميدان خان جراي كان الرجل الآخر في انتظارنا هناك.

وكان قد تعقب رجلًا اتضح أنه ذو مقام محترم جدًا. فتناولنا العشاء في حجرات مستر براف. وبعد ذلك مباشرة عاد الرجل الذي اقتفى أثر المستر لوكر وأخبرنا أنه تبعه إلى بيته حيث صرف حارسيه، وأنه لم يوجد أثر للهنود ولا لأي شخص آخر بالقرب من بيته. فسألت المستر براف:

- أتظن أن المستر لوكر أخذ جوهرة القمر معه إلى البيت؟

- كلا، وإلا لما صرف الشرطيين.

وانتظرنا بعد ذلك نصف ساعة عسى أن يعود عنب الديب. وحان موعد عودة المستر براف إلى هامبستيد. وذهابي أنا إلى راشيل في شارع بورتلاند. وكان وصولي إلى البيت بعد الساعة الثانية عشرة بنصف ساعة، فوجدت ورقة صغيرة عليها هذه الكلمات: "لقد أدركني النعاس يا سيدي، سأعود غدًا صباحًا بين التاسعة والعاشرة".

وكان قد ترك هذه الرسالة ذلك الغلام الجاحظ العينين الذي انتظرني ساعة، ثم كتب هذه المذكرة وانصرف.

وفي منتصف العاشرة من صباح اليوم التالي، سمعت خطوات خارج الباب فقلت: "ادخل يا عنب الديب". فانفتح الباب وقفزت واقفًا، لأنني رأيت أمامي الجاويش كاف!

وأخبرته بتجربة الأفيون، وبما حدث بعد ذلك في المصرف بشارع لمبارد فقال:

- أنا لا أوافق المستر جنجز على أنك أخفيت جوهرة القمر. ولكني أوافقه على أنك لا بد قد أخذتها إلى حجرتك!

واتجه إلى مكتبي، وبعد برهة عاد وفي يده ظرف مغلق، ثم قال لي: "لقد ارتبت في العام الماضي في شخص بريء. وقد تكون ريبتي الآن من ذلك النوع، فانتظر يا مستر بليك إلى أن تعرف الحقيقة ثم فض المظروف وقارن اسم الجاني بالاسم الذي كتبته في داخله"!

وقاربت الساعة العاشرة دون أن يحضر الغلام. وبدأ كاف يسألني عن أحوال بتريدج. ولا شك أنه كان سينتقل إلى الكلام عن وروده المفضلة لولا أن عنب الديب حضر في تلك اللحظة، وكانت شهرة كاف العظيم قد بلغت من ذيوعها أذني عنب الديب، فبدا مبهورًا بلقائه. ثم أخبره أنه تتبع البحار الطويل القامة ذا اللحية السوداء.

لأنه رأى المستر لوكر يدس إليه شيئًا وهو خارج من المصرف. ولم يتسع الوقت لعنب الديب كي يخبرنا الأن البحار خرج بسرعة هائلة. وقفز عنب الديب على ظهر العربة التي ركبها البحار إلى المدينة وفي هذه اللحظة دعيت خارج الحجرة لمقابلة المستر براف. فلما عدت نادى الجاويش عربة ركبناها ثم أخبرني ببقية القصة عنب الديب على النحو الآتي:

لما وصلت عربة البحار إلى برج وارف، نزل البحار ووقف يتحدث مع القائم على شؤون الباخرة روتردام التي ستقلع في اليوم التالي صباحًا. وسأل البحار: هل يمكن أن أدخل الباخرة الآن لأبيت في فراش قمرتي هذه الليلة؟ ولما أجيب بأن ذلك غير ممكن، انصرف على الفور. وهذه اللحظة فطن الغلام إلى رجل يرتدي ملابس الميكانيكيين يمشي في الجانب الآخر من الطريق ويتعقب البحار بنظراته. ووقف البحار عند مطعم ثم دخل فيه. فوقف الغلام في الخارج. ومرت عربة فوقفت بجوار الميكانيكي. وكان راكب العربة أسمر الوجه شبيهًا بالهنود. وبعد قليل تحركت العربة ببطء، ثم دخل الميكانيكي المطعم، فدخل الغلام أيضًا وتناول طعامًا طيبًا. ولما أسدل الظلام نهض البحار فغادر المكان وهو يتلفت حوله بارتياب. فنهض الغلام وتبع البحار الذي يبدو أنه لم يكن يدري على التحديد أين يذهب بعد ذلك. ولاحظ الغلام أن الميكانيكي برز مرة أخرى على الجانب الآخر من الطريق. وأخيرًا وقف البحار أمام خان، ثم دخل وطلب حجرة فأخذوه إلى رقم "١٠". وظل الميكانيكي في الجانب الآخر من الطريق على عادته. ثم تطلع إلى نافذة معينة في قمة الخان هي الوحيدة التي كان بها ضوء. ثم غادر المكان، فغادره الغلام أيضًا وذهب إلى مكتب براف.

وبعد الفراغ من هذه القصة، وقفت العربة في مدى ربع ساعة، وفتح لنا عنب الديب بابها فنزلنا. وما إن دخلنا الخان حتى ظهر لنا بوضوح أن شيئًا قد حدث! وقالت فتاة البار للجاويش كاف: "إن سيدي في الطابق الأعلى ولا يريد أن يزعجه أحد". فصعدنا حيث لقينا الرجل في الطابق الأول بادي الغضب، فقال له كاف:

- هدئ ثورتك، فأنا الجاويش كاف. وسأخبرك لماذا نحن هنا. فنحن مهتمان بأمر

رجل أسمر يرتدي زي البحارة قضى ليلته هنا!

- هذا الرجل الذي قلب البيت كله في هذه اللحظة، فقد طلب أن نوقظه في السابعة صباحا. ولكننا لم نظفر على طرقنا برد. ولم نستطع فتح الباب لنرى ماذا حدث. وطرقت الباب بنفسي بعنف على غير جدوى، وقد بعثت الآن في طلب نجارا

وفي هذه اللحظة حضر النجار وفتح الباب، فدخلنا صوب الفراش.

فاذا الرجل لم يغادر الغرفة. فهو راقد بملابسه على السرير. وفوق وجهه وسادة بيضاء تخفيه بأكمله. فاتجه الجاويش كاف إلى الفراش وأزاح الوسادة. فاذا وجه الرجل الأسمر جامدًا، وعيناه تحملقان على سعتهما بنظرات زجاجية نحو السقف. وقد أفزعتني تلك النظرة الثابتة فابتعدت نحو النافذة المفتوحة. وسمعت الجاويش يقول:

- انه ميت! ابعثوا أقرب طبيب وطلب الشرطة!

وشعرت بجذبة خفيفة من سترتي وبصوت رفيع يهمس: "انظر يا سيدي" وكان عنب الديب قد تبعنا إلى الحجرة. وهو الآن يقودني نحو ركن فيه منضدة. وفوقهما صندوق خشبي صغير مفتوح خاوٍ. وبجواره قطعة ممزقة من الورق الأبيض عليها هذه الكلمات: "أودع لدى السادة بوش وليزوت وبوش بواسطة المستر سبتيموس لوكر صندوق خشبي مختوم داخل هذا الغلاف يحتوي على شيء ثمين غالي الثمن. وعند طلب استرداد الصندوق لا يدفعه السادة بوش وشركاه إلا بناء على طلب شخصي من المستر لوكر".

وهذه السطور تثبت أن البحار حصل على جوهرة القمر عند مغادرته المصرف في اليوم السابق. وفي هذه اللحظة سمعت الجاويش كاف يناديني قائلًا:

- يا مستر بليك! انظر إلى وجه الرجل. انه متنكرا فلننظر ماذا تحت هذا الشعر. وجذب اللحية السوداء، فصاح عنب الديب وهو يرقص طربًا:

- لقد نزع لحيته وشعر رأسه. وسيغسل الآن السمرة عن وجهه!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وبعد لحظة جاءني كاف حيث كنت واقفًا والرعب مرتسم على وجهه فقال:

- تعال إلى السرير يا سيدي! بل انتظر! افتح ظرفي المختوم أولًا ففتحت الخطاب وقرأت الاسم المكتوب بداخله. وكان... "جودفري إيبلوايت".

- والآن تعال انظر إلى الرجل الراقد على السرير.

ومضيت فنظرت إلى الرجل الراقد على السرير، فاذا هو جودفري إيبلوايت!

Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الرواية السادسة

أوردها الجاويش كاف

جناية المال

دور كنج، بمقاطعة سوري، في ٣٠ يوليو سنة ١٨٤٩. إلى فرنكلن بليك، سيدي، أرجو المعذرة لتأخري في إرسال التقرير إليك. فقد صادفتني هنا وهناك متاعب لم أستطع التغلب عليها إلا ببذل الصبر والوقت. وستجد في هذه الصفحات إجابات معظم الأسئلة - إن لم يكن كلها - التي ألقيتها بشأن المرحوم المستر جودفري إيبلوايت.

أما وفاة ابن خالتك فنبدأ بها. ويبدو لي أنه قتل خنقًا بوسادة من وسائد فراشه. والذين قتلوه هم الهنود الثلاثة. والقصد من الجريمة هو استرداد جوهرة ماسة القمر!

وأما الدافع إلى الجريمة فأذكر أن صندوقًا صغيرًا وجد مفتوحًا وخاليًا فوق مائدة بالحجرة. وقد أخبرني المستر لوكر بأن الصندوق كان يحتوي على جوهرة القمر. واعترف بأنه سلم الصندوق للمستر جودفري إيبلوايت وهو متنكر بعد ظهر يوم ٢٦ يونيه الماضي. فمن الإنصاف أن نعتبر سرقة جوهرة القمر هي الدافع إلى الجريمة.

وأما عن الطريقة التي تمت بها الجريمة. فبفحص الحجرة التي لا يتجاوز ارتفاعها سبع أقدام، اتضح وجود نافذة مفتوحة في السقف. ويبدو أن شخصًا أو أكثر دخلوا منها. أما كيف دخلوا الخان فقد اتضح أن ثالث بيت في الشارع كان خاليًا وتحت الإصلاح. وأن سلمًا طويلًا تركه الصناع هناك هو بالتأكيد الذي استخدم في الوصول إلى السقف. ولما كان هذا الشارع من أهدأ شوارع لندن، فمن المرجح أن يتمكن أي شخص من استعمال ذلك السلم من غير أن يتعرض للافتضاح!

وأما الشخص أو الأشخاص الذين اقترفوا الجريمة، فالمفهوم أولًا أن الهنود كان لهم اهتمام شديد بالحصول على الماسة، ثم من المحتمل أن الرجل الذي يشبه الهنود والذي شوهد يتحدث إلى رجل في زي الميكانيكيين هو أحد الثلاثة. ومن المؤكد أن ذلك الرجل المرتدي ثياب الميكانيكيين كان يراقب حركات المستر جودفري إيبلوايت طول مساء يوم ٢٦، وفي صباح يوم ٢٧ شوهد ثلاثة رجال تنطبق

أوصافهم على الهنود الثلاثة يغادرون لندن بالباخرة القاصدة إلى روتردام، ولهذا يبدو من المقطوع به أن الهنود هم الذين اقترفوا الجريمة.

وليس هناك ما أضيفه سوى أن تقرير المحقق هو تقييد الجريمة "قتل عمد ضد مجهول أو أكثر". وأن أسرة المستر إيبلوايت خصصت جائزة، كما بذلت جميع الجهود لاكتشاف الجناة. ولم يمكن العثور على الشخص الذي كان يرتدي ثياب الميكانيكي. ولكن أمكن اقتفاء أثر الهنود. ولا يزال هناك أمل في القبض عليهم واسترداد جوهرة القمر. فالمعتقد أنهم الآن في طريقهم إلى بومباي.

وستقوم السلطات هناك بمحاصرة السفينة عند دخولها الميناء!

وقد اتضح أن المستر جودفري إيبلوايت، كان في سنة ١٨٤٨ قد ائتمن على حفظ عشرين ألف جنيه لشاب قاصر في ذلك الحين. وببلوغ ذلك الشاب سن الرشد في سنه ١٨٥٠ يتحتم تسليمه المبلغ. ويبدو أنه في نهاية ١٨٤٨ كان المستر جودفري إيبلوايت قد تصرف في هذا المبلغ بأكمله. وفي وسعنا الآن أن نرجع إلى تاريخ عيد ميلاد الآنسة فيرندر في الحادي والعشرين من يونيه سنة ١٨٤٨، ففي اليوم السابق وصل المستر جودفري إيبلوايت إلى بيت والده وطلب منه قرضًا، فرفض مستر إيبلوايت الكبير أن يقرض ابنه درهمًا.

وفي اليوم التالي ركب المستر جودفري إيبلوايت في صحبتك إلى دار الليدي فيرندر. وبعد بضع ساعات خطب الآنسة فيرندر إلى نفسه فرفضته. وحدث بعد ذلك أن ضايقت المستر كاندي بالهجوم على مهنته. فمازحك مزاحًا علميًا بجرعة من الأفيون أعطاها للمستر جودفري إيبلوايت لكي يدسها لك بغير علمك. وقام جودفري وبتريدج بإقناعك بتناول شيء من البراندي قبل إيوائك إلى فراشك. وفي هذا الشراب صب جودفري الأفيون خلسة!

والآن نخف إلى منزل لوكر في لامبث. ففي ساعة متأخرة من مساء يوم الجمعة الثالث والعشرين من يونيه. فوجئ المستر لوكر بزيارة من المستر جودفري إيبلوايت. وأخرج جودفري جوهرة القمر ثم سأله كم تساوي. فقدرها المستر لوكر بثلاثين ألف جنيه. وسأله كيف حصل عليها؟ فروى له جودفري إيبلوايت قصة، ثم

أخرى. غير أن المستر لوكر لم يرغب في تضييع وقته معه، ودق الجرس لخادمه كي يريه طريق الباب. وعندئذ قال له إيبلوايت الحكاية التالية:

"بعد أن دس الأفيون في شرابك، وألقى عليك تحية المساء وذهب إلى حجرته. ولكن متاعبه المالية لم تسمح له بالنوم. وبعد برهة سمعك تكلم نفسك. فأطل في حجرتك فرآك والشمعة في يدك تغادر مخدعك. ثم سمعك تقول بصوت غريب: "وما أدراني لعل الهنود مختبئون في البيت". ثم تبعك إلى حجرة جلوس الآنسة فيرندر، فرآك تدخل. ولم يرك تأخذ الماسة. بل لمح أيضًا الآنسة فيرندر ترقبك من باب مخدعها. وقبل أن تخرج أسرع هو إلى حجرته فلما مررت به خيل إليه أنك رأيته لأنك وقفت بالباب وناديته بصوت لا يشبه صوتك الطبيعي مطلقًا. ثم وضعت الماسة في يده وقلت له: "أعدها يا جودفري إلى مصرف والدك. فهي ليست في أمان هنا". وأنك ارتديت بعد ذلك روبك وجلست في مقعد كبير ذي ذراعين في حجرتك. ثم مال رأسك على ظهر المقعد واستغرقت في النوم. فانتظر المستر إيبلوايت ليرى ماذا ستصنع في الصباح. فلما وجد أنك لا تذكر أي شيء مما حدث أثناء الليل وضع الماسة في جيبه وكتم الأمر!

هذه هي القصة التي رواها ابن خالتك للمستر لوكر، وكانت شروط مستر لوكر التي أملاها على المستر جودفري كما يأتي:

المستر لوكر على استعداد لأن يقرض المستر جودفري إيبلوايت ألفين من الجنيهات. بشرط أن تودع جوهرة القمر لديه رهينة. وفي ختام سنة واحدة يستطيع أن يسترد المستر جودفري إيبلوايت الماسة إن دفع للمستر لوكر ثلاثة آلاف جنيه. وإذا فشل في دفعها تضيع عليه الماسة. ولما كان المستر جودفري بحاجة عاجلة إلى المال. فقد رضخ لشروط المستر لوكر. وهكذا انتقلت الماسة إلى يد المستر لوكر فأودعها المصرف!

والحادث الثاني في حياة ابن خالتك يتصل أيضًا بالآنسة فيرندر. فقد خطبها إلى نفسها مرة ثانية. وبعد أن قبلته رضي فيما بعد اعتبار الخطبة مفسوخة. ومن الأسباب التي حملته على ذلك أن تبين ان الآنسة فريندر لا حق لها إلا في ربع أملاكها

مدى الحياة. وأنه لا يمكن استدانة عشرين ألف جنيه على هذا الربع!

وجرب ابن خالتك حظه مع سيدة أخرى. فتحطم هذا الزواج أيضا على صخرة المال. وأنت تعلم أنه حظي بعد ذلك من إحدى المعجبات به بميراث قدره خمسة آلاف جنيه.

وقد اكتشف أنه سافر إلى الخارج عقب حصوله على الخمسة آلاف جنيه، وتوجه إلى أمستردام. وهناك اتفق على تقطيع الماسة إلى ماسات منفصلة. ثم عاد إلى إنجلترا متنكرًا واسترد جوهرة القمر في اليوم المحدد!

ولو أنه وصل سالمًا بالماسة إلى أمستردام لكان أمامه ما يكفي بالضبط لتقطيع الماسة وبيعها متفرقة قبل أن يبلغ الشاب سن الرشد في فبراير سنة ١٨٥٠.

ولي عظيم الشرف يا سيدي العزيز، أن أظل على الدوام خادمك المطيع.. ريتشارد كاف الجاويش السابق بقوة البوليس السري في إسكتلند يارد بلندن.

العثور على الماسة

جاء في تقرير مساعد الجاويش كاف سنة ١٨٤٩ ما يأتي:

في اليوم السابع والعشرين من يونيه الماضي أمرني الجاويش كاف بتعقب ثلاثة هنود مشتبه فيهم بالقتل، شوهدوا يركبون باخرة ذاهبة إلى روتردام.

فتوجهت إلى روتردام، وتحدثت إلى ربان السفينة، فأخبرني بأن الهنود نزلوا في جريفزند، وقرب ذلك الموضوع سألوه: متى تصل الباخرة إلى كاليه بفرنسا؟ فأخبرهم بأنها لن تذهب إلى هناك، فظهر عليهم الأسى الشديد، حتى رقَّ لهم الربان وكلف زورقًا فحملهم إلى الشاطئ!

ولعلمي بأن الهنود دبروا هذه الخطة، أسرعت عائدًا إلى جريفزند، ومن هناك اقتفيت أثرهم إلى بلايموث حيث علمت بأنهم أبحروا إلى بومباي على الباخرة "بيولي كاسل" منذ يومين. فلما أخبرت بذلك الجاويش كافن قام بإبلاغ شرطة بومباي كي تعمل على القبض عليهم عند وصولهم.

وفي التاريخ نفسه، كتب ربان الباخرة "بيولي كاسل" تقريرًا جاء فيه ما يلي:

طلب مني الجاويش كاف أن أسجل الوقائع الخاصة بالهنود الثلاثة الذين كانوا مسافرين في الصيف الماضي على ظهر بيولي كاسل. فقد لحق بنا الهنود في بلايموث. وعلى بعد من شاطئ الهند عوقتنا الريح ثلاثة أيام، وفي خلال تلك المدة كان بعض المسافرين يمتعون أنفسهم بالتجديف في قوارب صغيرة.

وبعد الفراغ من التجديف لم نكن نرفع القوارب إلى مواضعها، بل نتركها مربوطة إلى جانب السفينة للعودة إلى استعمالها. وفي صباح اليوم التالي وجد أحد هذه الزوارق مفقودًا وكذلك الهنود. فإن كان هؤلاء الرجال قد سرقوا الزورق بعد حلول المساء بوقت قصير (وهذا ما أقطع به) فقد كنا بعد قليل من اليابسة بحيث لا تكون هناك جدوى من تعقبهم. ومنذ ذلك الحين لم أسمع شيئًا عن الهنود الثلاثة.

وأخيرًا، كتب المستر ميرثويت خطابا إلى المستر براف، قال فيه:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- لقد حدثت لي مغامرة يعنيك أمرها. إذ وجدت نفسي أخيرًا على مدى ثلاثة أيام من مدينة سمنوت المقدسة، فعزمت على زيارتها قبل أن أغادر هذه البلاد. وكان سفري سيرًا على الأقدام. فلاحظت في الطريق أن خلقًا كثيرين كانوا يسافرون في اتجاهي. وقد زعمت لمن تحدثوا إليّ منهم أني هندي من إقليم بعيد. وساعدني على ذلك إتقاني للغة واتخاذي ثياب الهنود. فاكتشفت أن هذا الجمع الحاشد في طريقه إلى احتفال ديني سيقام فوق تل بالقرب من سمنوت ليلًا.

ولما وصلنا إلى التل وجدنا قدس الأقداس محجوبًا عن الأنظار بستارة معلقة بين شجرتين، ووقف عشرات الألوف من الناس وقد لبسوا جميعهم البياض، منتظرين على جانب التل. وكان رائعًا جدًا منظر القمر في الأفق الشرقي يصب بهاءه الباهر من سماء صافية الأديم. ثم فطنت فجأة إلى ثلاثة رجال بجوار قدس الأقداس. فعرفت فيهم على الفور الهنود الذين رأيناهم عند شرفة الليدي فيرندر. ورآني الواقف بجانبي أراقبهم فهمس في أذني:

- "إنهم براهمة فقدوا امتياز طبقتهم في خدمة الله. وقد أمر الإله أن يتم في هذه الليلة افتراق هؤلاء الرجال الثلاثة بحيث لا يلتقون بعد ذلك أبدًا، وبحيث لا يستريحون من التجوال بلا انقطاع من هذا اليوم إلى يوم مماتهم". وبينما الرجل يقول لي تلك الكلمات ركع الرجال الثلاثة أمام الهيكل المحجوب، ثم نهضوا وتطلع كل واحد منهم إلى صاحبيه، ثم تعانقوا، وهبطوا فرادى، فاختلطوا بالناس الذين أفسحوا الطريق صامتين لهؤلاء المنكودين.

ولما ابتعدت، أزيح الستار. وهناك فوق العرش، جلس إله القمر الأسمر البشع. وكانت تتلألأ في جبينه الماسة الصفراء التي كان آخر عهدي بها في بريطانيا وهي تزين ثوب امرأة!

أجل، بعد حين عادت جوهرة القمر مرة أخرى إلى المدينة المقدسة التي منها بدأت قصتها. وهكذا تتعاقب السنوات متشابهات. فماذا تخبئه جوهرة القمر في طواياها من المغامرات؟

من يدري؟